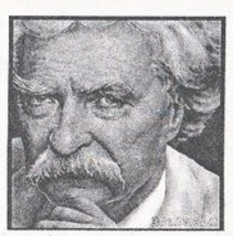


أمريكي في بلاط الملك

تأليف : مارك توين
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المـؤلـف



هـذه هى المـرة الثالثة تقريبًا التى نقابل فيها الكاتب الأمريكى العظيم صمويل لانجهورن كليمنز . ولو كنت من قراء هذه السلسلة فعلاً فأنت تعرف أن هذا هو الاسم الأصلى للكاتب الساخر مارك توين Mark Twain ، أمير الساخرين ، وأطول لسان يمكن أن تقابله فى نصف الكرة الغربى . كما لا بد أنك تعرف أن معنى اسمه المستعار هو (علَمٌ على اثنين) وهى من نداءات الملاحة فى نهر المسيسبى الذى شكل جزءًا بالغ الأهمية من حياته وكتاباته .

ولد فى نوفمبر عام 1835 فى قرية اسمها هانيبال بولاية ميسورى . هذه نشأة مهمة جدًا فى أدبه .. ولعل هناك خيوطًا كثيرة من توم صوير فى شخصية توين نفسه .

عمل لفترة طويلة كمرشد سفن فى المسيسبى ، وهى التربة التى وصفها فى كتاب (حياتى على المسيسبى) ، ويقول فيه إنه كان يعتقد أن مهمة الدليل سهلة وهى إبقاء السفينة فى النهر !.. ثم اكتشف أن عليه حفظ كل عمق وكل منحنى وكل صخرة فى هذا النهر . كان يعرف أن السفن تبحر ليلاً ، لكنه لم يتصور قط أن هناك رجلاً يترك فراشه الدافئ ليفعل هذا .. وهذا الشخص هو توين بالذات !!!

نعرف كذلك أن شعر رأسه ابيضّ فى دقائق ، عندما رأى حريق سفينة .. والسبب أن السفينة كانت تحمل أخاه هنرى . الحقيقة أن هذا الكاتب الساخر رأى أفدح المصائب فى حياته ؛ ومنها وفاة زوجته الحبيبة وابنته وصديق عمره .

جرب الكثير من المهن ، وجرب التجارة وفشل فى كل شىء تقريبًا ، ثم اندمج فى عالم الصحافة وقدم رواياته الأولى .

فى الأعوام التالية صنع توين شهرته ككاتب ساخر عبقرى يشكل أهم أعمدة الأدب الأمريكى ، وقدم قصة (مغامرات توم صوير ــ 1876) و(مغامرات هاكلبرى فين ــ 1884) التى خرج الأدب الأمريكى كله من عباءتها كما قالوا ، وهناك (الأمير والصعلوك ــ 1881) ، والقصة التى بين يديك الآن وعنوانها الأصلى (يانكى من كونكتيكات فى بلاط الملك آرثر ــ 1889) ، وقد غيرت العنوان ليكون مفهومًا نوعًا ، كما قمت بكثير من الاختصار لأن النص الأصلى بالغ الطول . فى العام 1906 منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة أكسفورد . وقد حكى عن هذا ساخرًا قائلاً إنه فخور جدًا بهذه الدكتوراه التى لم يتعب فيها ، خاصة أنه لا يفهم معنى (دكترة الأدب) أصلاً . الحق أنه نال شعبية كبيرة لدرجة أن حفلات قراءة كانت تقام له ، وكان الناس يبتاعون التذاكر كدور السينما ، ليدخلوا ويشاهدوه وهو يتلو أجزاء من قصصه .

جرب توين أن يمول الكثير جدًا من الاختراعات ، وفى كل مرة كان يخسر الكثير من المال ، ولهذا رفض بقسوة مشروعًا جديدًا بدا له سخيفًا ..

كان المشروع لمخترع أسكتلندى اسمه (جراهام بل) يقضى بـــأن يكلـــم الناس بعضهم عبر الأسلاك !... لقد رفض توين المشاركة فى الهاتف !

كما توقع توين مرارًا ، فقد ولد فى اليوم الذى ظهر فيه مذنب هـــالى .. وهذا المذنب يظهر كل 75 عامًا لذا توقع أن يموت فى يوم ظهوره التالى ، وهو ما حدث فعلاً .

د . أحمد خالد



كلمة تفسيرية

كنت أزور قلعة ورويك عندما قابلت رجلاً غريب الأطوار سوف أتكلم عنه هنا . شدنى بثلاثة أشياء : بساطته العفوية وإلمامه بالدروع القديمة وطيب معشره حيث ظل يتكلم طيلة الوقت . صرنا فى مؤخرة القطيع الذى يقوده المرشد السياحى ، فبدأ يقول أشياء أثارت شغفى . كان يتكلم عن عصر آخر وبلد بعيد . شعرت كأننى مسحور أجول وسط الظلال والقدم . كان يتكلم عن سير لانسلوت .. سير بيديفير .. سير جالاهاد ، كأنه يتكلم عن أصدقاء حميمين . ثم استدار لى وقال كأنه يتكلم عن الطقس أو شىء عادى :

ـ « هل سمعت عن تناسخ الأرواح ؟ »

قلت له إننى لم أسمع عن ذلك .. كان متحمسًا لدرجة أنه لم يلحظ إن كنت قد قلت نعم أم لا . وكان الدليل يتكلم قائلاً :

ـ « درع عتيق من القرن السادس وعهد الملك آرثر . قيل إنه يخص السير ساجامور .. لاحظوا الفتحة الدائرية فوق الثدى الأيسر .. ربما نجم عن رصاصة أطلقها جنود كرومويل بعد اختراع السلاح النارى . »

ابتسم مرافقى ابتسامة من نوع كان مستعملاً فى الماضى ، وغمغم لنفسه :

ـ « أنا رأيت هذا .. أنا فعلتها بنفسى ! »

أصابنى الذهول من كلامه لكنه كان قد رحل ..

فى تلك الليلة جلست أرمق الدروع على وهج النار ، وجلـــست أراجـــع كتاب سير توماس مالورى الساحر بما فيه من مغامرات . ورحت أحلم .. قرأت قصة أخرى قبل منتصف الليل . وكانت تقول :



كيف ذبح سير لانسلوت عملاقين وحرر القلعة

حالاً جاء عملاقان مسلحان مدججان بالدروع ، وفى يد كل منهما هراوة مخيفة . هوى سير لانسلوت على أحد العملاقين وأطاح برأسه . حين رأى رفيقه ذلك جرى بعيدًا خائفًا ، لكن سير لانسلوت مضى خلفه وهوى عليه بالعصا . دخل القلعة فرأى سيدات وعذارى يركعن أمامه ويشكرنه على الخلاص . قلن إنهن لبثن سجينات هنا سبع سنوات ، وقلن إنه فارس شجاع عظيم قام بأشجع عمل يمكن لفارس أن يقوم به . سوف نصلى لك ونذكر اسمك .

قال لهن إن اسمه سير لانسلوت دو ليك . وتركهن وأوكل أمرهن لله . وركب حصانه وانطلق يجوب الوديان والغابات . وجد كوخًا فيه سيدة عجوزًا طيبة منحته المأوى . عندما جاء وقت الراحة اقتادته مضيفته إلى علية فوق غرفة النوم لينام ، ففك سلاحه ودخل الفراش .

بعد قليل جاء أحدهم متلهفًا ودق على الباب . نظر سير لانسلوت من النافذة فرأى ثلاثة فرسان يتقدمون نحو الرجل ، وانقضوا عليه فراح يدافع بالسيف عن نفسه . قال سير لانسلوت : سوف أدافع عن هذا الرجل الوحيد لأنه من العار أن يهاجم ثلاثة رجلاً واحدًا . فلو مات الرجل لاعتبر نفسه شريكًا فى موته . واندفع نحو الرجال وصاح : هاجمونى واتركوا هذا الرجل .

ترك الرجال ضحيتهم وانطلقوا يبارزون سير لانسلوت ، وحاول الرجـل ـ سير كاى ـ أن يساعد لانسلوت ، لكن الأخير قال له أن يتركه يقـاتلهم وحده . وبست ضربات أسقط الرجال الثلاثة .

توسل له الرجال أن يتركهم أحياء ، فطلب منهم الولاء لـسير كـاى .. رفض الرجال ذلك فقال لانسلوت :

ـ إما أن تقبلوا أو تموتوا .. سوف تعودون لبلاط الملك آرثر لتعلنـوا الخضوع له .. وهناك تضعون أنفسكم تحت تصرف الملكة جنيفر ، وقولوا إن سير كاى أرسلكم لتكونوا سجناء عندها .

فى الصباح المبكر ارتدى سير لانسلوت دروع سير كاى وركب حصانه وودع مضيفته .. صحا سير كاى ووجد أن لانسلوت غير موجـود . ثـم أدرك أنه ترك له دروعه وحصانه .. هكـذا يخـدع النـاس ويحـسبونه لانلسوت .

وضعت الكتاب فسمعت دقة على الباب وجاء الغريب . ناولتـه غليونًـا ومقعدًا وبعض الويسكى السكوتش الساخن . كنت أتمنى أن يبدأ فى سـرد قصته .. بعد كأس رابعة بدأ يحكى بطريقة بسيطة .



قصة الغريب

أنا أمريكى ... ولدت فى هارتفورد بولاية كونكتيكات .. أنا شمالى ابن شمالى . كان أبى حدادًا وعمى طبيب خيول ... ومارست المهنتين معًا . ثم ذهبت لمصانع الجيش وتعلمت مهنتى الحقيقية وصنعت كل شىء : بنادق .. مسدسات .. مدافع .. محركات . ومع الوقت ترقيت وصرت رئيسًا أشرف على نحو ألف رجل يعملون تحت إمرتى . مع قوم كهؤلاء لا بد من عراك ومشاكل ، وقد تلقيت ضربة بعتلة على رأسى أثناء مشاجرة مع رجل يسمونه هرقل .. فشعرت بأن كل عظمة فى جمجمتى اصطدمت بجارتها . أظلم العالم ولم أعرف أين أنا .

عندما استعدت وعيى كنت تحت شجرة بلوط على العشب وأمامى منظر ريفى جميل . كان هناك رجل على جواد ينظر لى .. رجل كأنه خرج من كتاب مصور .. يلبس دروعًا عتيقة كاملة ومعه سيف ودرع ورمح ، وحصانه يلبس الدروع وله قرن فى رأسه ..

قال لى :

ـ « هلا فعلت يا سيدى ؟ »

ـ « فعلت ماذا ؟ عد للسيرك الذى جئت منه وإلا أبلغت الشرطة . »

هنا تراجع الرجل للخلف ثم اندفع نحوى بأسرع ما استطاع ورمحه مصوب أمامه . أدركت أنه جاد فسرعان ما كنت فوق الشجرة قبل أن يصل .

كان مصرًا على أننى صرت أسيرًا له فحاولت أن أصل لاتفاق .. سوف أمضى معه مقابل ألا يؤذينى . هبطت من الشجرة ومشيت جوار حصانه . مشينا فى أماكن مألوفة لكنى لم أر سيركًا أو مكانًا يبدو كسيرك . قررت أنه على الأرجح ليس من سيرك ولكن من مستشفى أمراض عقلية . سألته عن أى مسافة تبعد عن هارتفورد فقال إنه لم يسمع عنها قط .

رأينا قرية يلتف حولها نهر وقربها تغفو هضبة ، وهناك قلعة فتساءلت :

ــ « هل هذه بريدجبورت ؟ »

قال :

ــ « بل كاميلوت » .

بدأ النعاس يتسرب لعينى مرافقى فابتسم ابتسامة غامضة من ابتساماته وقال :

ــ « لا أستطيع مواصلة السرد لكنى كتبت القصة .. تعال واقرأها لو أردت . »

ثم أحضر لى كتابًا بخط اليد وأشار لمقطع أراد أن أبدأ منه وقال :

ــ « ابدأ من هنا .. أنت تعرف ما سبق .. »

خرجت من المكان وجلست جوار النار ورحت أتفحص الوثيقة التى اصفرت من فعل الزمن . هناك كتابة بخط الرجل لكنى أرى تحتها على الرقائق كتابة عتيقة بكلمات لاتينية . بدأت أقرأ ..

قصة الأرض المفقودة

الفصل الأول

كاميلوت

باقى قصة الغريب :

قلت لنفسى :

ــ « كاميلوت .. متى قرأت هذا الاسم ؟ ربما كان اسم المصحة » .

كان نهار صيف جميلاً ، والجو يعبق برائحة شجية وصوت الطيور .. لا شىء يتحرك .. هناك آثار عجلات على جانبى الطريق . عجلات سميكة بحجم كفك . جاءت فتاة شقراء فى العاشرة من عمرها يحيط بها شعر أصفر جميل ، وتضع تاجًا من الزهر ..

لم يبد رجل السيرك اهتمامًا بها وكذا لم تهتم الفتاة بنا كأنها تمر جوار بقرتين ، ثم رأتنى فتصلبت كأنها تمثال .. صارت صورة من الرعب الممزوج بالذهول . ثم هربت .

اقتربت مع الفارس من المدينة .. بدأت المعالم تتضح . من حين لآخر ترى كوخًا متداعيًا وحوله حديقة خضراء صغيرة . وكان هناك رجال ملوحو البشرة لهم شعر طويل مجعد يتدلى على أكتافهم . وكانوا يلبسون سترات خشنة قصيرة . الأطفال الصغار كانوا جميعًا عراة لكن لا أحد يهتم . كانوا جميعًا ينظرون لى فى فضول ..

وكانت هناك عدة بيوت حجرية بلا نوافذ والشوارع أقرب لأزقة متعرجة غير مرصوفة . الكــلاب والخنازير كانت تتنقل بحرية تامة . كنا نتــسلق باستمرار نحو القلعة . هناك كان حراس يضعون شعار التنين على ثيابهم ، وانفتحت أبواب القلعة وهبط الجسر المعلق . وجدنا أنفسنا نقف فى الهواء بين أربعة أبراج عملاقة ، وكانت هناك طقوس احتفاليـــة . وكـــان هنـــاك استعراض للألوان الزاهية مع حركة لا تتوقف .

* * *



الفصل الثانى

بلاط الملك آثر

تسللت جانبًا ولمست رجلاً من العامة على كتفه وسألته بطريقة أقرب للتلميح :

ــ « سيدى .. هل أنت تعمل فى مستشفى المجانين أم أنك فى زيارة ؟ »

نظر لى فى غباء ، فقلت :

ــ « أعتقد أنك مريض هنا » .

ابتعدت عنه وأنا أفتش عن واحد عاقل يعطينى بعض المعلومات . دنوت من واحد وسألته :

ــ « هل لى أن أرى المدير . لحظة واحدة » .

ــ « أرجو ألا تسمح لى .. »

ــ « أسمح بماذا ؟ »

ــ « لا تعطلنى إن كانت هذه اللفظة تناسبك أكثر .. »

وفهمت أنه طباخ ولا وقت عنده للثرثرة برغم أنه يتمنى معرفة مصدر ثيابى العجيبة . دنا منى فتى آخر يلبس بنطالاً ضيقًا بلون الجمبرى مما جعله يبدو كالجزرة .. أدركت أنه طيب الشمائل . نظر لى متفحصًا وقال إنه وصيف وإنه جاء من أجلى . وسرعان ما دخل فى حديث متدفق ساخن

كأننا صديقان قديمان . وسألنى عن نفسى وثيابى .. وفجأة قال إنــه ولــد عام 513 .

شعرت بقشعريرة وتوقفت وسألته :

ــ « قل ببطء .. متى ولدت ؟ »

ــ « 513 . »

ــ « لا يبدو هذا عليك . قل لى يا صاحبى .. هل أنــت بكامــل قــواك العقلية ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « وهذا المكان ليس مصحة عقلية للمجانين ؟ »

ــ « لا .. »

ــ « إذن أين أنا ؟ »

ــ « فى بلاط الملك آرثر !.. 19 يونيو عام 528 .. »

سقط قلبى فى قدمى .. معنى هذا أننى لن أرى رفاقى ثانية .. لن يولدوا قبل 1300 سنة ..

كنت أصدقه ولا أعرف السبب . كنت أعرف أن هناك خسوف شمس كليًّا وقع فى القرن السادس يوم 21 يونيو . وبدأ بعد الظهر . لو حــدث هــذا الخسوف بعــد يومين فــإن الفتى يقول الحقيقــة . لننتظــر إذن اللحظــة المناسبة ..

لو كان كلام الفتى سليمًا فأنا أسبق هؤلاء القوم عقليًا بـ 1300 سنة وهذا معناه أننى سيدهم . سألت الفتى :

ـ « هل لى أن أسألك عن بعض الأشياء ؟ ما اسم هذا الذى جاء بى هنا ؟ »

ـ « سيدك وسيدى ؟.. هذا الفارس العظيم السير كاى سينتشال .. وهو أخو الملك بالرضاعة » .

حكى لى قصة طويلة ، لكن الجزء الذى اهتممت به هو أنهم سيلقون بى فى جب وأظل هناك آكل أكلاً شحيحًا إلى أن يأتى رفاقى ليدفعوا لى فدية ، ما لم أتعفن أولاً ، وقد بدا لى الاحتمال الأخير أقرب للممكن . أخبرنى الفتى كذلك أنه فور انتهاء المأدبة والخمر سوف يستدعينى السير كاى ليعرضنى أمام الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . سوف يحكى لهم كيف قبض على وسوف يكذب ، لكن ليس من مصلحتى أن أحاول التصحيح .. بعد هذا إلى الجب .

جاء من يدعونى للقاعة .. كانت مزدحمة بالجمهور والموسيقيين والزخارف .. فى المركز كانت مائدة من البلوط ضخمة كأنها بحجم حلبة السيرك . وحولها جلس حشد من الرجال بثياب ملونة زاهية بعضهم يشرب الخمر فى قرون ثيران ، وبعضهم ما زال يمضغ قطعًا من اللحم . وجوار كل رجل هناك كلبان ينتظران ما سيلقى لهما من عظام .. فإذا رمى بالعظمة انقضا عليها ونشبت معركة .

كانوا يتكلمون بطريقة تليق ببلاط الملوك ، لكن فى كلامهم الكثير مـــن السذاجة .. والكثير من الكذب .

لم أكن الأسير الوحيد .. كان هناك نحو عشرين أسيرًا ، معظمهم ممزق الثياب منهك والبعض تلطخ وجهه بالدم ، لكنهم لا يشكون أبـــدًا .. قلـــت لنفسى إن هؤلاء قد آذوا الكثيرين من قبل لذا يعتبرون ما يحدث لهم عادلاً ، ولا يتوقعون حسن معاملة .

* * *



الفصل الثالث

فرسان المائدة المستديرة

كانت المحادثات كلها تدور حول القتال وكيف تم أسر هؤلاء .. كانوا أقرب للأطفال فى كونهم يقاتلون بعضهم بلا سبب على طريقة الصبية : « أنا أقدر أضربك . » . سوف تفتن بعد قليل بهذه الأحاديث وتشعر بأنها خالية من العقل .. لكن لا بأس .. فالعقل قد يفسد هذه الجلسة .

رأيت مجموعة من الأسرى يزحفون على ركبهم نحو الملكة فيسجدون ، طالبين منها أن تصفح عنهم أو تجلدهم أو تفعل ما تشاء . قالوا إن السير لانسلوت قد هزمهم جميعًا وجعلهم عبيدًا للملكة ، وقد تخفى فى دروع وسلاح السير كاى .

نهض رجل مسن مدثر بثياب سوداء .. وكانت قدماه تترنحان . كان يتكلم بصوت واهن وعينين دامعتين . قال لى الصبى الوصيف الذى عرفت أن اسمه كلارينس :

– « تبًا .. سوف يحكى تلك القصة التى يرددها طيلة الوقت » .

– « من هو ؟ »

– « مرلين .. الكذاب والساحر .. لكن الرجال يهابونه لأن الرعد والبرق والشياطين فى صفه .. »

أراح الفتى رأسه على كتفى وغرق فى نعـاس عميـق ، وكـذا فعـل الحضور والكلاب .. البعض أراحوا رءوسهم علـى سـواعدهم والـبعض أرجعوا رءوسهم للخلف وراحوا يغطون . وراح الذباب يئز وراحت الفئران تسرح هنا وهناك شاعرة أنها فى بيوتها . كان مرلين يحكى قصة طويلـة بدت لى طريفة مسلية ، لكنى تذكرت أن الرجال يسمعونها للمـرة الألـف فيمكن فهم حالة الملل هذه .

بعد انتهاء القصة أفاق سير (ديناذان) مضحك الملك فقرر أن يـنعش الناس بدعابة سخيفة . ربط بعض الأوانى لذيل كلب وتركه يركض محـدثًا صخبًا وخلفه الكلاب تطارده وتعوى .. وككل المضحكين كان ديناذان هـو أول شخص ضحك كثيرًا على هذه النكتة . ثم بدأ يلقى خطبة مضحكة .. لم أسمع فى حياتى كل هذه النكات السخيفة القديمة فى خطبة واحـدة . مـن القسوة أن أسمع نفس النكات التى سأسمعها فى طفولتى بعد 1300 عام .

نهض سير كاى ليحكى للقوم كيف وجدنى .. وكيف كنت وسـط قـوم برابرة كلهم يلبسون هذه الثياب الغريبة التى ألبسها . قام بالقـضاء علـى سحرى الشرير عن طريق الصلاة ثم عاد بى أسيرًا ليعرضنى كعجيبة يراها الملك آرثر وبلاطه . قال إننى حاولت الهرب منه فوثبـت فـوق شـجرة ارتفاعها عشرون مترًا ، لكنه قذفنى بقطعة حجر بحجم بقرة . وقال إننـى سأموت عند ظهر اليوم الحادى والعشرين .

كان القوم خائفين بسبب القوى السحرية الغامضة المتوارية في ثيـابى الغريبة ، لكن مرلين نهض واتهمهم بالغباء ، وقال : لماذا لا تجردونه من ثيابه ؟

هكذا سرعان ما كنت عاريًا تمامًا . وكنت فى غاية مــن الحــرج لكــن لا أحد يهتم أو يشعر بالخجل لى .. كانوا يتحدثون عنى كأننى كرنب . قالت الملكة فى اهتمام إنها لم تر ساقين كساقى من قبل .. هذه هــى المجاملــة الوحيدة التى تلقيتها لو كانت مجاملة !

ألقوا بى فى جب مظلم وتركوا لى بقايا طعام للعشاء وبعض القش للنوم فوقه ، والكثير من الفئران للصحبة .

* * *

الفصل الرابع

إلهـــام

كنت مرهقًا فلم تستطع مخاوفى أن تبقينى ساهرًا . لابد أننى نمت طويلاً وعندما صحوت قلت لنفسى :

ــ « هذا حلم غريب .. سأنام بعض الوقت ، ثم أنهض لأنهى معركتى مع (هرقل) » .

هنا سمعت صوت السلاسل والأقفال ورأيت الوصيف يقف أمامى فشهقت !... وقلت :

ــ « أما زلت هنا ؟ ارحل مع الكابوس . »

لكنه ضحك بطريقته الخفيفة ، وقد راق له المأزق الذى أنا فيه .

قلت له : إننى مؤمن أن الملك آرثر لا وجود له ، وإننى أحلم بأننى أراه أمامى . فقال :

ــ « هل هو حلم كذلك أنك ستُحرق غدًا ؟ »

هنا أصابتنى صدمة وأدركت أن موقفى خطير حلمًا كان أو لا .. قلت له :

ــ « صديقى .. أريد أن تساعدنى على الفرار من هنا . »

ــ « كيف ؟ الأبواب يحرسها رجال مسلحون » .

ثم ارتجف رعبًا ودنا ليقرب فمه من أذنى .. وقال :

ـ « الساحر مرلين قد ألقى تعويذة على هذا الجب .. ما من رجل يجسر على اختراق هذه من أجلك . والآن كن كريمًا معى فلا تخنى وإلا ضعت » !

ضحكت ضحكة منتعشة وقلت :

ـ « مرلين هذا المهرج العجوز .. هذا الجحش !.. هذا المخرف » .

لكن الفتى راح يرتجف :

ـ « آه .. أوقف هذه الكلمات قبل أن تسقط هذه الجدران فوقنا فى أى لحظة . استعدها ! »

هنا صحت فيه :

ـ « قم وقف على قدميك .. هل تعرف لماذا ضحكت ؟ لأننى أنا نفسى ساحر .. »

وقف الفتى متصلبًا فى احترام ، فخطر لى أن الكذاب لا يحتاج للبرهنة على كلامه هنا . الناس تأخذ كذبك كقضية مسلم بها . فأكملت كلامى :

ـ « عرفت مرلين فى مصر منذ 300 سنة .. دائمًا يلاحقنى .. ليس بارعًا على الإطلاق ويصلح فقط للريف .. لهذا أطلب منك خدمة .. سوف تخبر الملك أننى ساحر عظيم وسوف يكون انتقامى مخيفًا لو أصابنى أى ضرر » .

كان الصبى خائفًا فلم يتكلم . فلما رحل خطر لى أننى كشفت عن حماقتى .. لو كنت ســاحرًا عظيمًا بحق فلمــاذا أطلب عون فتى ضعيف كهذا ؟ ثــم قررت أن هــذه الكائنات لا تملك المنطق ولا تستطيع وضع الحقائق جوار بعضها .

سمعت صوت الخطوات فأصابنى الذعر .. كان يجب أن أرتب حيلة تجعل كلامى مقنعًا أولاً .. لكن لا وقت لعقلى كى يعمل . ثــم وجــدت الفكــرة .. الخسوف !... لا بد أنها حيلة لعبها كورتيز من قبل وبوسعى أن ألعبهــا . جاء الفتى مذعورًا وقال :

ــ « نقلت رسالتك لجلالة الملك وقد اقتنع بالكلام ، لكن مــرلين ظهــر وأقنعه أنك مخبول وتساءل عن سبب عدم ظهور مواهبك العظيمة .. لأنك لا تملكها .. »

قلت للفتى فى وقار :

ــ « ما هو اليوم ؟ إنه اليوم 20 أليس كذلك » ؟

ــ « بلى » .

ــ « وسوف يحرقوننى غدًا .. متى » ؟

ــ « عند الظهر » .



بدأت أتكلم بصوت رهيب يتعالى مع الوقت ، وبوقار شديد .. وقلت :

ــ « قل للملك إنى سأخنق العالم كله بالظلام فى تلك الساعة .. ســوف تذبل نباتات الأرض ويتضور الناس جوعًا » .

فقد الفتى وعيه فحملته بيدى وأسلمته للحرس .

* * *

الفصـــل الخامس

الخســـوف

غرقت فى القلق طيـــلة الليـــل .. لكنى عزيت نفسى بأن الخـــسوف آت لا محالة ، وعندها سأكون أعظم رجل فى المملكة . بل إننى بدأت أســـتبق لحظة الحرق هذه لأمر بهذا التحدى العظيم ..

لكن فى الوقت نفسه كان شىء ينبش فى عقلى . القلق ..

انفتح الباب ودخل بعض الرجال المسلحين وقال قائدهم :

ــ « المحرقة جاهزة .. هلم » .

وتد المحرقة !... تخلت عنى شجاعتى وكدت أفقد الوعى . من الصعب أن تتنفس .. واستطعت فى النهاية أن أقول :

ــ « هذا خطأ .. الإعدام يتم غدًا » .

ــ « لقد قدموه يومًا .. هلم ! »

هكذا لم أعرف ما أفعله . شعرت بحيرة بالغـــة وخرجـــت معهـــم مـــن الزنزانة عبر شبكة ممرات إلى ضوء النهار الساطع ، ورأيت الوتد هنـــاك فى وسط ساحة القلعة .. وحوله بعض القوم وراهب . وكان الملك والملكة يجلسان فى مكان الصدارة .

من مكان ما ظهر الوصيف الشاب وراح يهمس فى أذنى :

ــ « قلت لهم إن قوتك فى السيطرة على الشمس لــن تبلــغ ذروتهــا إلا غدًا ... فإذا أردنا إنقاذ الأرض والشمس فعلينا قتلــك اليــوم .. هكــذا خدعتهم .. إنهم متعجلون يريدون إنهاء القصة ، وكل ما عليــك هــو أن تجعلهم يرون بعض الظــلام .. ســوف يفترضون أننى أحمق ويطلقــون سراحك .. اذهب للمجد لكن تذكر صاحبك القديم .. »

اختنقت بالكلمات .. لم أجسر على أن أخبره أن طيبته وبلاهتــه عجلتــا بموتى .

كان الصمت كاملاً ، لدرجة أنهم لو عصبوا عينى لحسبت نفــسى فــى زنزانة ولست محاطًا بأربعة آلاف رجل . قيدونى للوتد بسلاسل .. كومــوا الخشب عند قدمى ثم جاء أحدهم بمشعل .. وجاء الكاهن يــشير للــسماء ويتلو كلمات باللاتينية . ثم رأيته يتصلب ويشهق ..

الخسوف قد بدأ .. !.. لقد أخطأت بيوم كامل ..

رأيت حافة الظلام تزحف على قرص الشمس .. فراح قلبى يدق كالطبل . وراحت الصرخات تدوى .. ورأيت مرلين يحاول أن يشعل الخشب بنفــسه فصحت :

ــ « قف حيث أنت !... لو تحرك أحد حتى الملك نفسه فلسوف أقتلــه بالرعد .. »

صاح الملك :

ـ « الرحمة يا سيدى ... قيل لنا إن قواك لن تصل ذروتها إلا غــدًا .. افعل ما تريد لكن حافظ على الشمس ! »

كنت الآن أسيطر على الموقف تمامًا .. لكن كيف لى أن أوقف الكسوف ؟ إنه يتزايد مع الوقت ولا حيلة لى فى ذلك . وعدتهم ألا يطول الظلام أكثــر من ساعة .. فلم أكن أذكر الفترة التى يدوم فيها .

صاح الملك :

ـ « حرروه من قيوده . ورحبوا به جميعًا .. لقــد صــار ذراع الملــك اليمنى .. يملك القوة والسلطة .. فقط أعد لنا الضياء » .

ثم هتف فى رجاله :

ـ « بدلوا ثيابه ليبدو كأمير .. »

كان الظلام يتزايد .. ليس بوسعى عمل شىء طبعًا .. النــاس تــصرخ ذعرًا لشعورها برياح الليل الباردة تهب ظهرًا ولرؤية النجوم . نهضت بعد مرور الوقت وقلت بصوت عال :

ـ « فليزل السحر وليعد النور » .

لم يحدث شىء للحظات ثم فجأة بدأ هلال يظهر مــن الــشمس فتعــالى الصياح والتهليل .. والتفوا حولى يطلبون البركة .



* * *

الفصل السادس

برج مرلين

لقد صرت الشخص الأهم فى المملكة بعد الملك .. لم أكن مستريحًا فى تلك الثياب لكنى قدرت أن العادة ستجعلنى أعتادها . كل شىء فخم لكن وسائل الراحة الصغيرة التى أعتبرها أهم شىء فى الحياة غير موجودة .. لا صابون .. لا ثقاب .. لا نظارات مقربة .. بدأت أشتاق لبيتى وزمنى . لا غاز ولا شموع .. فقط طبق ملىء بالزيت فيه قطعة قماش . هذا هو مصدر الضوء . لا كتب ولا أقلام ولا زجاج فى الفتحات التى يسمونها نوافذ . الأسوأ أنه لا توجد قهوة ولا شاى ولا تبغ .. على أن أعيش كروبنسون كروزو الذى وجد نفسه فى جزيرة منعزلة .

كانت أنباء المعجزة قد انتشرت ، ولم يعد فى بريطانيا شخص لا يمشى خمسين ميلاً ليرانى . توافد القادمون على البلدة وكان على أن أريهم نفسى عدة مرات فى اليوم . كان هذا مرهقًا لكنه أغاظ الساحر مرلين مما أمتعنى كثيرًا . المشكلة الأخرى هى أنهم كانوا ظامئين لرؤية معجزة أخرى .. هذا طبيعى .. المرء يحتاج لأن يتفاخر على الجيران . هناك كسوف قمرى لكنه ما زال بعيدًا .. بعد عامين . كنت على استعداد لأن أدفع مالاً كى أعجل به . وعرفت من الوصيف أن مرلين يقول للناس إننى مخادع ولهذا لم أصنع أى معجزة أخرى .

بما نلت من سلطات ألقيت مرلين فى السجن ، وأعلنت فى البلاد أننى مشغول لمدة أسبوعين .. بعدهما سوف أستمتع بإحراق قلعة مرلين بصواعق من السماء . ولو تكلم أحد عنى بسوء فلسوف أمسخه حصانًا .

هكذا صار بوسعى أن أعمل مدة أسبوعين .. صنعت بعض البارود ، واتجهت لقلعة مرلين ورحت مع مساعدى الشاب نضع المسحوق فى الفجوات والممرات .. كانت قلعة هائلة لكنها رومانية متداعية . رحنا نعمل ليلاً فنصب البارود ونضع الفتائل قرب الأرض ..

فى الليلة رقم 13 غرسنا مانع صواعق ، ومددنا أسلاكًا منه إلى مخازن البارود كلها .. وأرسلت الحجاب فى الشوارع ينذرون الناس من الاقتراب من القلعة خلال 24 ساعة . كانت الأيام الأخيرة تشهد الكثير من العواصف الرعدية لكنى برغم هذا خشيت أن يتأخر الأمر يومًا أو اثنين .

بالطبع كان نهارًا مشمسًا لم نر مثله من زمن !.. هكذا الأمور . رحت أراقب الطقس منعزلاً بينما الوصيف يأتى من حين لآخر ليخبرنى أن الناس قلقون مستثارون . فجأة بدأت عاصفة .. راحت تقترب ..

طلبت أن يجلبوا مرلين وخرجت إلى المتراس حيث زحام الناس وحيث الملك والملكة يراقبان القلعة . نظرت لمرلين وقلت له بصوت كئيب :

ـ « أنت حاولت حرقى دون أن أؤذيك .. أنا سأحرق قلعتك » .

سمحت له بأن يجرب بعض التعاويذ لإنقاذ القلعة .. رسم دائرة نثر فيها المسحوق فارتجف الناس ورسموا علامة الصليب . كانت العاصفة قد وصلت وراحت المشاعل تنطفئ أو يتراقص لهبها . هنا بلغتنا العاصفة ورأيت أن نجاح خطتى قريب فقلت له :

ـ « واضح أنك فشلت .. الآن جاء دورى » .

هنا هبط لسان برق على مانع الصواعق فطار البرج فى الهواء فوق بركان من نار . ثم تهاوى البرج ومعه القلعة واستحال الليل نهارًا . بينما تهاوى الناس أرضًا من الرعب .

كانت معجزة فعالة .. بدأ الزحام من حولى يتلاشى وعبر الأوحال ظهرت آثار العجلات ..

أراد الملك أن يوقف راتب مرلين .. بل أراد أن ينفيه لكنى منعته . طلبت أن تعيد الحكومة بناء القلعة لمرلين من جديد ، على أن يبقى يمارس عمله فى مهام صغيرة مثل الطقس .

لم يشكرنى الساحر قط ، لكنى لم أتوقع منه أن يكون ظريفًا بعد ما فعلته به .

* * *

الفصل السابع

الرئيس

تحسن وضعى كثيرًا وبدأت أتعايش مع القرن السادس ... كأننى كنت هناك طيلة حياتى . هذا إذن هو بلاط الملك آرثر وليس مستشفى مجانين .

كنت أعيد تأمل الوضع المذهل الذى بلغته . أنا لست ظل الملك . بل الملك هو ظلى .. بينما فى القرن العشرين لم أكن لأبلغ مرتبة أعلى من مدير مصنع .

كان البلد مثيرًا وناسه من أطيب ما يمكن .. فى الواقع كانوا نوعًا من الأرانب لا أكثر . كانوا مخلصين بشدة للملك والكنيسة والنبلاء ، كما يحترم العبد السوط أو كما يحترم الكلب الغرباء الذين يركلونه !.. من الغريب أن تتصور الفقاقيع الطافية على السطح التى يعتبرها الناس طبقة نبلاء .. وهى طبقة لو تركت لتجنى رزقها بنفسها لغرقت فى الفقر والجوع والنسيان .

معظم من كانوا فى مملكة الملك آرثر كانوا عبيدًا لا يعرفون أنهم كذلك .. كانوا يحسبون أنفسهم بشرًا . كانوا يؤمنون أن عليهم أن يجوعوا ليأكل النبلاء .. يتعروا ليلبس النبلاء .. يحاربوا ليعيش النبلاء .. ولم يعرفوا لأنفسهم حياة اخرى . إن الأفكار الموروثة شىء مثير يثير الاهتمام . لقد نشأ هؤلاء القوم على أن الناس الذين بلا ألقاب مهما بلغوا من نبل وذكاء

لا قيمة لهم كالحيوانات ، بينما نشأت أنا على أن كثيرين من التافهين يتوارون خلف ألقابهم الطاووسية . كانوا يعاملوننى كما نعامل فيلاً فى حديقة الحيوان .. الكل منبهر بحجمه الضخم وبقوته ، كما أنهم يعرفون أن غضبته عاتية لا ترحم ، لكن هذا لا يكفى كى يعتبروه واحدًا منهم . كنت أنا هذا الفيل .. يحترموننى ويخافوننى كما يخافون الحيوان . إن هذا نتيجة قرون من سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التى حولت البشر إلى ديدان .. قبل هذا كان الرجال رجالاً تتوقف قيمتهم على ما يحققونه ، فجاءت الكنيسة لتعطى الملك حقه الربانى .. وعلمت البسطاء فضائل الخضوع والفقر وعدم مقاومة الطغيان . هكذا تعلم الرجل العادى أن عليه أن يخضع لوارث الألقاب بل ويفخر بذلك .

أنا هنا عملاق بين الأقزام ، وعقل جبار بين البلهاء ، وبرغم هذا يستطيع أى معتوه يملك لقبًا أن يزعم أنه أفضل منى . بوسعه أن يجلس فى حضرة الملك بينما لا يحق لى هذا . لم أحب الألقاب ولم أبحث عنها ، لكن لقبًا خرج عفوًا من فم حداد فى إحدى القرى ، وانتشر من فم لفم حتى لم يعد لى اسم آخر . هذا الاسم هو (الرئيس) .. لو ترجمناه للغتنا المعاصرة . لا بأس بلقب كهذا . لقد اختارته لى الأمة كلها ..

* * *

كانت هناك دورة منافسة للفروسية ، وجاء الفرسان من كل أرجاء البلاد يستعرضون براعتهم . كنت مشغولاً فى طريقة لنقل الحضارة إلى هذا الزمن .. عندما تصل لبلد جديد بكر فأول ما عليك أن تنشأه هو مكتب

لبراءة الاختراعات .. ثم تضع نظامًا للتعليـم .. ثـم تـصدر جريـدة .. للصحافة عيوبها لكنها هى الطريقة التى تبعث أمة ميتــة مــن قبرهــا .. لا تنس هذا .

حدث خلاف بينى وبين أحد الفرسان ، وهو سير ســاجامور .. غـضب منى للغاية وقال إن بيننا حسابًا يجب أن نسويه ، واقترح أن نلتقــى بعـد ثلاثة أو أربعة أعوام وحدد المكان . كان ذاهبًا للحروب الصليبية لذا قــام بتأجيل المواجهة ، فقلت له إننى سأنتظره ..

كان ذاهبًا فى رحلة البحث عن الكأس المقدسة ، وهى عادة لــدى كـل الشباب هنا .. ليس لدى أى واحد منهم فكرة عن مكانها ، ولا أعتقـد أن أحدهم يتوقع أن يجدها فعلاً .. ولو وجدها فلن يعرف ما يفعله بها . فــى كل عام تذهب حملة للبحث عن الكأس ، ثم تنطلق حملة أخرى بعــد عــام تبحث عن الحملة الأولى .

* * *



الفصل الثامن

بدايات التحضر

سمع فرسان المائدة المستديرة خبر التحدى فصار حديث الساعة . رأى الملك أن على أن أخوض مغامرات أخرى حتى أتأهب لسير ساجامور بعد أعوام . كنت أنا مشغولاً ببناء عدد من المصانع وتحويل مجموعة من الجهلة إلى صناع مهرة .

قمت بإنشاء مجموعة مدارس أحد ومدارس للحرفيين . وقد أنشأت جوًا من الحرية يسمح لكل من يعتنق أى مذهب مسيحى أن يفعل ما يشاء ، وهكذا انتشرت التجمعات البروتستانتية . كان من الممكن أن أجعل الجميع معمدانيين مثلى ، لكن هذا كان يتناقض مع الطبيعة البشرية التى تميل لتنوع العقائد .

مرت أربع سنوات حققت فيها الكثير ، ونقلت لهم الكثير من حضارة القرن التاسع عشر .. لقد صارت لدى مدارس فى كل مكان ، ومصانع أنشأتها وعلمت عمالها .. فكرت فى أن أعلمهم الضوء لكن كان هذا أقوى من تحملهم .. ثم إننى كنت سأجعل الكنيسة الكاثوليكية تنقض على .

كنت أضىء للعالم شمعة واحدة فى كل مرة ، وكنت مصممًا على أن أظل كذلك .

مـن ضمن الأسرار كـان أن أنشـأت أكاديمية عسكرية خاصة بـى .. (وست بوينت) تخصنى . وقد ظلت سرًّا كما ظلت الأكاديمية البحرية التى أنشأتها سرًّا آخر . لقد أحدثت تغيرات كثيرة ، لكن حرصت على أن تظـل سرية غير زاعقة .

حدث شىء بسيط عطل مشاريعى .. لكنه لم يضايقنى . برغم أنه كـان يمكن أن يقع فى وقت أفضل . قال لى الملك إن التأجيل الذى طلبته لأربـع سنوات قد أوشك على الانتهاء . يجب أن أبحث عن أمجاد حتى يصير لـى الشرف فى مبارزة سير ساجامور . ما زال فى حربه مـن أجـل الكـأس المقدسة لكن يمكن أن يعود فى أى لحظة .

* * *

لم يكن هناك بلد فيه كل هذا العدد من الكذابين .. كانوا فى كل مكـان ، وفى كل يوم كان أحدهم يصل ومعه قصة عن أميرة تريـد العـون ومـن ينقذها من قلعة هى فيها أسيرة . وكان الملك يسأله عـن مكـان القلعـة والطريق لها . كان الكل يبتلع هذه الأكاذيب ولا يوجه أسئلة . فى ذات يوم جاءت واحدة من هؤلاء القوم وحكت قصة مألوفة عن أميرة سجينة فـى قلعة ، ومعها 44 حسناء أخرى . سادة القلعة ثلاثة عمالقة أخوة لكل منهم أربع أذرع وعين واحدة .. والعين فى حجم ثمرة الفاكهة . لم يحددوا نوع الفاكهة ..

ثار الفرسان وراح كل منهم يطلب من الملك أن يرسله للمهمة ، لكن من الغريب أن الملك كلفنى بها أنا الـذى لم يطلب أى شىء . نقل لى تـابعى

كلارينس الخبر مسرورًا لأن الملك أولانى هذا الشرف ، فشعرت بغيظ عار لكن كـان على أن أخفيه . قلت إننى سعيد .. بالفعل كنت سعيدًا كـشخص ينزعون فروة رأسه .

طلبت مقابلة الفتاة . كانت على قدر من الجمال ، واسـمها سـاندى .. وسـألتها :

ـ « تعرفين أننا لا نعرف أى شىء عنك لذا سنكون بطيئين نوعًا . أنـا آسف .. أنت تفهمين .. سوف أسألك بعض الأسئلة فلتجيبى بصدق . أيـن تعيشين ؟ »

ـ « فى أرض المودير يا سيدى » .

ـ « لم أسمع عنها قط .. هل والداك حيان ؟ »

ـ « هذا لا أعرفه يا سيد .. أنا سجينة القلعة منذ زمن سحيق » .

ـ « هل معك أى وثائق تدل على أنك صادقة ؟ »

ـ « ولماذا أحمل ؟ أليس لدى لسان أستطيع أن أحكى به ؟ »

يا للبلاهة .. ألا ترين أنه لا بد من شىء يدعم قصتك هذه ؟..

ـ « أين تقع تلك القلعة التى فيها 45 حسناء سجينة تحت حراسة ثلاثة عمالقة ؟ »

ـ « آه .. إنها ضخمة وتقع فى بلد بعيد .. »

ـ « ما بعدها ؟ »

ــ « لا أعرف يا سيدى .. بعيدة جدًا وكفى » .

ــ « ليكن .. فى أى اتجاه هى ؟ »

ــ « ليس لها اتجاه يا سيدى .. الطريق لها يتلوى .. ويلتـف .. هـذه إرادة الله ألا يكون لها اتجاه .. ولو شاء لزالت كل الدروب من على ظهـر الأرض » .

ــ « إذن انس هذا أيضًا .. انا أناجى نفسى فقـط .. هـذه عادة سـيئة لدى .. عادة قديمة . لنقل إن هذا نتيجة عسر الهضم .. لكن لا تقولى إنه ليست معك خارطة للمكان » .

قالت :

ــ « خارطة ؟ هل تقصد ذلك الشيء الذى يصطادونه مـن المحـيط ، ويطبخونه مع الزيت والبصل و ... »

ــ « هل لم تسمعى عن لفظة خارطة من قبل ؟ ليكن .. لـن أشـرح . لا أحب الشرح لأنه يعقد الأمور .. خذها للباب يا كلارينس » .

كان من الصعب أن تنتزع منها حقائق أكثر إلا بالديناميت . كانت جحشًا حقيقيًا . برغم هذا أصغى لها الملك وحاشيته باحترام كأنها صـفحة مـن الإنجيل . لقد رحبوا بها كما يرحب الحانوتى بجثة .

عاد لى كلارينس ، وكنت مغتاظًا لأن الفتاة لم تعطنى دليلاً واحدًا علـى مكان القلعة ، لكنه كان مندهشًا لأننى مصر على معرفة هـذه الحقـائق .. وقال :

ـ « إنها ستذهب معك يا سيدى .. هذه هى العادة » .

ـ « تذهب معى ؟ هراء » .

ـ « لكنها الحقيقة .. »

ـ « وتركب معى وتبيت الليل معى ؟ هذه فضيحة » .

لم يعد هناك كلام سوى عن مغامرتى القادمة ، والطريقة التى سأهزم بها العمالقة . كانوا أطفالاً طيبين .. مجرد أطفال . علمونى الكثير من التعاويذ السحرية وأعطونى أعشابًا أضعها فوق جروحى . لقد نسوا أننى ساحر عظيم يمكن أن أواجه التنين أو شياطين الجحيم .

كنت سأنطلق عند الفجر . لكنى قضيت وقتًا لعينًا وأنا أحاول ارتداء الدروع .. عملية معقدة جدًا وكلها تفاصيل . تلبس عدة طبقات من الحديد ، وفى النهاية .. هذا ليس وقتًا مناسبًا للرقص !.. الرجل المدرع كهذا هو بندقة لا تستحق تحطيمها .. هناك لحم قليل جدًا بالنسبة للقشرة ..

ساعدنى الصبية على ارتداء الشىء ، وإلا لما استطعت .

كانت الشمس قد ارتفعت وقد جاء الملك والبلاط ليرونى . فى ثياب كهذه لا تركب بنفسك بل يحملونك حملاً كأنهم يحملون مريضًا لعيادة طبيب . يثبتون قدميك فى الركاب وأنت تشعر بأنك شخص آخر . يعطوننى الرمح ويعلقون الدرع فى رقبتى كأننى سفينة تستعد لتبحر فى البحر .

لم يبق سوى أن تجلس الآنسة خلفى على سرج إضافى . كان اســـمها ساندى كما قلت .

وانطلق الفرس .. الكل ينظر فى رهبة ما عدا الأطفال .. الأطفـــال هـــم الأطفال فى كل مكان ، وهم لا يحترمون أحدًا مهما كان .. لا أســـتطيع أن أترجل لعقابهم لأننى لن أستطيع الركوب مرة أخرى ، وأنا أمقـــت البلـــدان التى لا تملك رافعة !

* * *



الفصل التاسع

تعذيب بطىء

انطلقنا مع أول أنسام الفجر .. رأينا الوديان الخضر تمتد تحتنا ، بينما الأنهار تجرى بينها . ومن بعيد نرى موجات فضية تتعالى نحو الأفق هى فى الحقيقة قلعة . نحلم فى الضوء الأخضر الذى جاء من شعاع الشمس الذى تخلل الأوراق الخضر .

مع بداية اليوم ارتفعت حرارة الجو وولى الشعور بالراحة . مشينا مساحة شاسعة بلا رقعة ظل . هناك مضايقات غريبة لم تخطر بذهنك قط . فى أول عشرة أميال شعرت بحاجة لاستعمال المنديل ولم يكن فى جيبى واحد .. الآن صار هذا هاجسًا ملحًا مستمرًا .. لا مفر منه .. فقدت أعصابى ودعوت أن يشنق الرجل الذى يصنع درعًا لا جيوب فيه . المنديل فى خوذتى لكنها خوذة لا يمكن أن تنزعها بنفسك . الشىء الذى لا تستطيع الوصول له هو الشىء الذى تريده بشدة ..

العرق المالح يسيل على عينى ولا أستطيع بلوغ المنديل . يبدو الكلام سهلاً على الورق لكنه عذاب حقيقى . لقد كنا نعبر مساحات غبار كبيرة وكان هذا يتطاير لأنفى فأدمع وأعطس ..

لم نلق أى واحد فى بريطانيا المقفرة هذه .. لم نلق حتى الغيلان ، وكنت أتمنى أن أجد غولاً معه منديل .. الثياب تسخن بلا توقف مع

الشمس وتقعقع مع كل حركة . كأنى أشوى فى فرن . تعرق بلا توقـف .. هكذا تأتى اللحظة التى تشعر فيها بالحكاك وترغب فى الهرش !!

تسللت ذبابة عبر القضبان الموضوعة على وجهى ، فهززت رأسـى . لكنك تعرف كيف تتصرف الذبابة .. راحت تطير من فتحة أنـف لأخـرى وهى تئز ..

هنا نفد صبرى فطلبت من الفتاة أن تنزع عنى الخوذة وتهزهـا .. ثـم ملأتها بالماء وسكبت بعضه داخل الدروع . ولا يمكـن أن أصـف مـدى انتعاشى وقتها ..

بعد الراحة تنبهت لحقيقة أننى لا أستطيع صعود صـهوة الحـصان .. الفتاة لا تستطيع مساعدتى ، وعلى أن أنتظر مساعدة . كانت كائنًا لطيفًـا مطيعًا لكنها ثرثارة جدًا لدرجة أنك تشعر بمخك يتورم . لو كانـت هنـاك سدادة فلين معها لكانت مريحة . لا تتعب أبدًا ولا يجف نبع كلامها لحظـة أو يمسسها لغوب .

كنت أقول لها :

ـ « استريحى أيتها الطفلة .. أنت تستعملين كل الهواء بحيـث سـوف تضطر المملكة لاستيراد المزيد غدًا .. والميزانية عاجزة أصلاً » .



* * *

كنت سعيدًا جدًا بهذه الراحة ، لكن ضايقنى أننى لا أستطيع إشعال غليونى . كنت أملك مصنع ثقاب من قبل لكنى لم أحضر ثقابًا معى . ثم إننى كنت جائعًا .

الفرسان المدرعون مطمئنون دومًا إلى أنهم سيجدون طعامًا ولا يخطر ببال أحدهم أن يعلق كيس شطائر فى الرمح . فرسان المائدة المستديرة يفضلون الموت على أن يشاهد أحدهم بشىء كهذا .

جاء الليل فكان على أن أمضيه داخل الدرع .. وبدأ المطر يهطل وهكذا بدأت الحشرات تفر من المطر لتتسلل لدروعى !. كنت أتساءل طيلة الليل : كيف يتحمل هؤلاء القوم الدروع ؟ كيف ظلوا بها كل هذه القرون وناموا بها ؟

جاء الصباح وأنا نعسان منهك .. جائع .. أرغب فى حمام . هى كانت منتعشة لأنها نامت كجثة طيلة الليل ، أما عن الحمام فلا أحسبها جربته فى حياتها ، لذا لم تفتقده .

مررنا بمجموعة من الفلاحين البائسين الذين يعملون فى تمهيد أحد الطرق ، بالسخرة لسيد المقاطعة . هؤلاء من يقال عنهم أنهم (قوم أحرار) والحقيقة أنهم لا يستطيعون مغادرة المقاطعة ، أو طحن الحبوب إلا فى مطحنة السيد ، ولا يبيعون أملاكهم إلا بعد دفع ضريبة للسيد .. وقد طلبنا منهم بعض الطعام فرحبوا بذلك .

دفعت ثلاثة بنسات مقابل إفطارى .. والحقيقة أن المرء كان بوسعه أن يطعم دستة رجال بهذا السعر فى ذلك الزمن . ليكن .. أنا مبذر بطبعــى .. ثم إن هذا المال سيفيدهم أكثر بكثير من فائدته فى خوذتى .

ساعدونى على ركوب الحصان من جديد . أشعلت الغليون ونفثت سحابة دخان عبر قضبان الخوذة ففر الجميع رعبًا .. فقد حسبونى تنينًــا يخــرج الدخان من فمه .

انطلقنا فى رحلتنا ، وكنت قد بدأت أنعس بينما نحن نجتاز مرجًا ..

فجأة رأينا قلعة على مرتفع .. لها منظر مهيب ولها أبراج رمادية يلتف حولها نبات اللبلاب . كانت أكبر قلعة رأيناها . وخطر لــى أنهــا القلعــة المقصودة ، لكن ساندى قالت إن لا .. لا تعرف من مالكها وقد مرت بهــا أثناء ذهابها إلى كاميلوت .

* * *



الفصل العاشر

مورجان لى فاى

معظم ما يقوله الفرسان الجوالون خرافات ، ويمكنك أن تتوقع أن 97% من كلامهم كذب .. الباقى حقيقى . لكن برغم هذا أحترم قولهم إن معظم القلاع أماكن غير مريحة .. يجب أن تعرف شيئًا عن صاحب القلعة قبل أن تدق على الباب لذا سررت حين رأيت عن بعد فارسًا يتجه نحو القلعة

كان يلبس خوذة مزخرفة بالريش . لاحظت أنه يحمل لافتة على شكل ساندوتش كتب عليها :

ـ « صابون برسيمون .. كل الحسناوات يستعملنه » .

كانت هذه فكرتى . الطريقة التى اقترحتها لجلب التقدم والحضارة لهذا الزمن . هكذا زودت مجموعة فرسان بإعلانات تشبه الساندوتش .. كانت هذه فكرتى نحو التقدم والحرية والتخلص من سلطة الكنيسة الكاسحة وقد طلبت من هؤلاء المعلنين أن يمشوا فى كل مكان وينطقوا للناس معنى المكتوب على اللافتات . ثم إن المعلن يبدأ فى إقناع الناس بأهمية ما يعلن عنه .. يجرب الصابون على كلب أولاً .. ثم يجربه على نفسه .. فإذا ظل الناس متشككين قام بتجربته على ناسك .. إن الغابة تعج بهم ..

ظهر أثر الدعاية بسرعة .. كان مصنع الصابون يعمل بعاملين ، فصار يحتاج إلى خمسة عشر عاملاً . كان اسم الفارس المعلن هو (لا كوت ميل تيل) ، وقد كان عاثر الحظ فى بيع الصابون ، لدرجـة أنه غسـل ناسكًا بالصابون لكن الناسك مات .. قال لى إن القلعة تخص مورجان لـى فـاى أخت الملك آرثر .. زوجة الملك يورينز . إن لها مملكة صغيرة يمكنـك أن تقف فيها وتقذف الطوب على المملكة المجاورة . الممالك هنا كثيرة جـدًا لدرجة أنك تنام وقد ثنيت ركبتيك لأنك كى تفردها تحتاج لجواز سفر .

رحل الفارس وبعد قليل ظهر لنا حراس القلعة وسمحوا لنا بالدخول بعد مفاوضات . زيارتى كانت مخيبة للأمل لكنى كنت قد سمعت عن (مورجان لى فاى) فلم أتوقع الكثير . كانت شريرة جدًا وقد أقنعـت النـاس أنهـا ساحرة عظيمة . إن لقاءها ممتع كلقاء الشيطان نفسـه . لكنى اندهـشت لأنى وجدتها جميلة .. لم يجعد الشر بشرتها .. يمكنك أن تحـسبها أختًـا لابنها ..

دعينا لمقابلتها .. وكان زوجها هناك .. كما كان ابنها موجـودًا ، وقـد أثار فضولى لأن ساندى صدعتنى بقصته التى قهر فيها ثلاثين فارسًـا .. راحت مورجان توجه لى الأسئلة فى تهذيب . صوتها عذب كتغريد البلابـل وخطر لى أن هذه المرأة ضحية الأقاويل والأكاذيب .

جاء تابع وسيم يحمل لها رسالة . تعثر من الارتباك وهو يقف جوارها ، فما كان منها إلا أن أخرجت خنجرًا وغرسته فى قلبه كـأنه فـأر . قـال الملك لفظة . « أوه . » متعاطفة .. لكن الملكة رمته بنظرة نارية جعلتـه

يتوقف فورًا . جاء بعض الخدم يأخذون الجثة بينما عادت الملكة تتكلم بلطف . ولاحظت أنها سيدة بيت بارعة لأنها كانت تراقب الخدم وكيف يتخلصون من الجثة وينظفون الأرض بالمناشف .

وأدركت أن الملك المسكين فى حالة رعب دائمة .. يكفى أن تنظر له لينثنى .

كنت أتكلم فأطريت الملك أرثر .. ونسيت أن هذه السيدة تكره أخاها بجنون ، فرأيتها تنادى الخدم وتأمرهم :

ــ « خذوا هذين الحقيرين للزنازين » .

كانت زنازين هذا القصر ذات سمعة ممتازة ، ولم أجد ما أقول .. لكن حين وضع الحارس يده على ساندى صاحت :

ــ « قاتلك الله !... كيف تجرؤ ؟ هذا هو الرئيس !!! »

كانت فكرة طيبة لأن الملكة غيرت طريقتها على الفور .. وقالت :

ــ « سمعت عن براعتك مع الساحر مرلين .. أعرف أن بوسعك أن تحيل حراسى وقصرى إلى رماد ، ولهذا أردت أن أدفعك لأن تظهر مواهبك .. هذا نوع من الفضول الطفولى » .

أصيب الحراس بالرعب فخرجوا بمجرد أن سمح لهم ..

* * *

كانت الملكة راغبة بشدة فى أن أريها مواهبى وأقتل شخصًا ..

لكنها قوطعت عندما دعوها لوقت الصلاة . يجب أن أعترف أن هــؤلاء القوم متدينون مهما بلغ بهم من توحش وطغيان .. فيما بعد رأيت أكثر من نبيل يتوقف ليصلى قبل أن يذبح عدوه .. يجب أن أعترف بهذا برغم أنــى لا أحمل غرامًا مفقودًا للكنيسة الكاثوليكية ..

بعد الصلاة جاءت مأدبة تضيئها مشاعل من الشحم .. وكل شىء كــان فاخرًا جديرًا بالملوك .. العدد كان متواضعًا هو 180 شخصًا تــم تــرتيبهم حسب طبقتهم الاجتماعية . وكانت هناك فرقة موســيقية بدائيــة تعــزف الموسيقا .

تلا القس صلاة مائدة لاتينية طويلة . ثم انطلق الخدم والسقاة يحملــون أطباق المأدبة . تعالى صوت المضغ ساعة ونصف الساعة وتلاشى الطعام .. ثم بدأ الشرب جالونًا تلو الآخر . بدأ المرح وتعالت أصوات النكات .. وعند منتصف الليل كانوا ثملين جميعًا . بعضهم يبكى وبعضهم يضحك وبعضهم فقد وعيه تحت المائدة ..

هنا ظهرت امرأة شائبة الشعر تستند إلى عكاز ، وكانت تقف عند نهاية القاعة .. صاحت فى الملكة :

ــ « عليك غضب الرب ولعنته يا امرأة .. يا من قتلت حفيدى الوحيــد وجعلتنى فى العالم بلا أهل ولا صديق » .

رسم الكل علامة الصليب ، لكن الملكة نهضت ولهيب الموت فى عينيها وأشارت للخدم :



ــ « خذوها إلى المحرقة ! »

نفذ الحراس الأمر وقبضوا على العجوز .. كان المشهد قاسيًا .

نهضت ساندى وقالت للملكة فى حماسة :

ــ « الرئيس يقول لك إن هذا لن يكون وإلا سيمحق هذه القلعة بمن فيها ... »

لم تقاوم الملكة وعادت لمقعدها ، وفى هذه اللحظة أفاق الجميع وتدافعوا للخروج من القاعة قبل أن أغير رأيى وأمحقها فعلاً ..

سمعنا صوت صراخ مريع قادمًا من القبو ، فارتعدت .. لكنها قالت لى ضاحكة :

ــ « هذه روح عنيدة تأبى الاعتراف !! »

سألتها مذعورًا عما يحدث ، فقالت لى إنه فلاح متهم بأنه قتل وعلاً فى أرضها .. وهى تحاول إرغامه على الاعتراف .. قلت لها :

ــ « ليست هذه طريقة مناسبة .. يجب أن تجعلى المتهم ومن أبلغ عنه يتواجهان » .

قالت :

ــ « مستحيل أن يتواجها .. فالذى أبلغ عن قتل الوعل جاء متخفيًا فى الليل وأخبر الحراس ثم فر » .

ــ « إذن شهادة هذا المجهول هى الدليل الوحيد على قتــل الوعــل ؟.. ألا يمكن أن يكون هو قاتل الوعل ؟.. لكن ما فائدة تعذيب السجين إذن ؟ »

ــ « لن يعترف بطريقة أخرى .. وهذه الطريقة الوحيدة لننقذ روحه .. لن يموت دون اعتراف » .

ــ « وماذا لو لم يكن لديه ما يعترف به ؟ »

عناد رهيب ..

دخلنا قاعة التعذيب فرأيت عملاقًا شابًا من الفلاحين تم ربط أطرافه وقد تناثر العرق على جبينه .. جواره يقف الجلاد والحراس وعند قدميه امرأة شابة باكية ، وطفل على حجرها ... شد الجلاد الحبال شدة فصرخ السجين وصرخت المرأة فى صوت واحد . طلبت بحزم من الملكــة أن أتكلــم مــع السجين منفردًا .. ليس لها أن تعارضنى فأنا أمثل الملك آرثر هنا .. .

كانت متضايقة لكنها رضخت لسلطتى ..

أرغمت الحراس على فك السجين وأرقدناه وقدمنا له بعض الخمر . كانت المرأة فى حيرة ورعب فطلبت منها أن تربت على الرجل . نظرت لى فــى امتنان كحيوان قدمت له معروفًا لا يفهم ما هو . وسالت دموعها .

وعدت الرجل بأن يخرج من هنا رجلاً حرًا .. ثم سألت الرجل :

ــ « ما هى قصتك بالضبط ؟ أعرف الناحية الأخرى من القــصة فمــاذا عن ناحيتك ؟ يمكننى أن أوقن أنك إذ لم تتكلم بعد هذا العذاب لم تفعل شيئًا فعلاً » .

قال الرجل :

ــ « بل أنا من قتل الوعل يا سيدى ! »

ــ « ما معنى هذا ؟ »

صاحت المرأة :

ــ « أنا طلبت منه أن يعترف يا سيدى ، ليظفر بميتة سريعة .. الصمت سيجعله يموت ببطء ويتعذب » .

هنا فهمت .. لو أدانوه فلسوف يأخذون أملاكه ويطردون أسرته . لكن لو عذبوه حتى الموت دون أن يتكلم فلا يستطيع أحد أن يسلب أسرته حقها . المرأة تفضل أن يظفر زوجها بميتة سريعة على أن تحتفظ بالمسكن .. تذهلنى حقًا قدرة النساء المذهلة على التضحية عندما يقتضى الأمر . وتذهلنى أكثر القيمة المتدنية لغير النبلاء فى هذا الزمن . من حق النبيل أن يقتل من يريد فلا يحاسب إلا لو قتل نبيلاً آخر .

كانت ورقتى الأخيرة هى أن طلبت من الملكة أن أرى مجموعتها من السجناء ، لأننى أشيد سجونًا جديدة فى كاميلوت .. ترددت قليلاً كما توقعت ثم امتثلت كما توقعت أيضًا .

نزلنا إلى السراديب المظلمة العفنة حيث كان المساجين .. من ضمن البؤساء الذين رأيتهم كانت امرأة لا تقدر على فتح عينها إذ رأت الضوء ، بعدما صار الظلام عالمها .. كانت ترتدى بعض الخرق ، ويبدو أنها دخلت

السـجن فى الثامنة عشـرة وظلت هنـاك تسـع سنوات . لقـد كان أحد النبلاء يريد أن ينام معها قبل زوجها طبقًا للقـانون هنـا ، وقـد حـاول زوجها الشـاب أن يدافع عنها . كانت النهاية ان ألقى بها وزوجها هنـا فى هذا الباستيل . تسع سنوات فى الظلام ولا يعرف احـدهما إن كـان الآخر حيًا أم لا .

رأيت الزوج الذى تحول لهيكل عظمى استطالت لحيتـه وامـتلأ جلـده بالندوب ، وأمرت بأن يجلبوه إلى زوجته .. توقعنا أن مرآها سيعيد له الدم ، لكن كان الأمر مخيبًا للأمل . لقد جلسا يتبادلان نظرات غائمة فيها فـضول حيوانى . ثم عاد كلاهما يحلق فى عالم الأحلام .

أطلقت سراح 47 سجينًا من جحور الفئران هذه .. لم أترك فى الـسجن سوى أحد النبلاء الذى اتهموه بذبح نبيل آخر . رباه !.. ما أتفـه أسـباب سجن هؤلاء القوم . معظمهم ألقى به فى الـسجن بـلا ذنـب ، ودون أن تغضب عليه الملكة بل هى تجامل صديقًا . بين المساجين هنـاك خمـسة لا يذكر أحد أسماءهم ولا جرائمهم !.. وهم كذلك لا يذكرون . أربعة رجال وامرأة .. لم ير أحدهم ضوء الشمس منذ 35 عامًا . الملكـة كانـت قـد ورثتهم من صاحب القصر السابق ..

سألت الملكة :

ــ « إذن لماذا لم تطلقى سراحهم ؟ »



أدهشها السؤال فهو لم يخطر ببالها قط .. هؤلاء كانوا نوعًا من العقارات .. الأملاك .. عندما نرث أملاكًا فنحن لا نتخلى عنها حتى لو لم نكن نريدها .

عندما خرجت الوطاويط للنور وجدت أنهم هياكل عظمية والفزاعات وتمنيت لو التقطت صورة لهم .

* * *

الفصـل الحـادى عشـر

قلعـة الغيـلان

قطعنا تسعة أميال ، هو رقم مدهش بالنسبة لحصان يحمل ثلاثة : رجلاً وفتاة ودرعًا .. فجلسنا نستريح تحت بعض الأشجار جوار غدير رائـق . من بعيد اقترب فارس يبدو أنه لا يكف عن الشكوى ، لكننـى سـررت إذ رأيته لأنه يحمل لافتة كتب عليها أحد إعلاناتى :

استعمل فرشاة أسنان بيترسون الواقية :

عرفت على الفور أنه سير مردوك دى لا مونتين . كنـت أحبـه لأنـه مخلص شجاع وكان منظره محببًا بكتفيه العريضتين وشعر رأسه الـشبيه بلبدة الأسد .

كان غاضبًا يطلق السباب لأنه يبحث عن خـصمه سـير (أوسـيس) ليصفى حسابه معه . لن يترجل عن جواده ولن يستريح إلـى أن يجـده . وعلى بعد أميال رأينا بطريركًا ممن أطلقت سراحهم من السجن أمـس .. بصعوبة يرى من حوله أو يدرك أين هو بعد نصف قرن من البقـاء فـى حفرة مظلمة كالفئران . أقاربه يذكرون شبابه عندما قبل طفلـه الرضـيع وناوله لأمه ثم انطلق لمصيره . كان أقاربه يحيطون به فرأيت فيهم مـدى

ما يمكن للمرء أن يبلغه من عبودية وصبر واستسلام . خيالهم قد مات .. وهذه أحط درجة أعرفها فى البشر .. معنى هذا أنهم بلغوا القاع ..

المشكلة أن التاريخ يعلمنا أن الثورات الناجحة فقط هى التى تبدأ بالدم . هؤلاء القوم لن يثوروا إلا لو أهديتهم مقصلة ، وبالتالى أنا لا أصلح لهم .

قالت ساندى إننا نقترب جدًا من قلعة الغول .

لقد نسيت تمامًا سبب هذه الرحلة .. عندما ذكرتها توترت وبدا لى الخطر حقيقيًا ودانيًا . كانت حماستها تتزايد ومعدية ، مما جعل قلبى يدق بلا توقف . رأيتها تترجل ثم تزحف وسط مجموعة من الأشجار فترجلت خلفها ..

كانت عيناها حارقتين وهى تشير بإصبعها وتهمس لاهثة :

ــ « القلعة !.. القلعة !.. هذه هى » .

قلت فى خيبة أمل :

ــ « هذه حظيرة خنازير . لا أكثر .. حولها سور » .

قالت فى ذهول :

ــ « هى مسحورة من زمن .. بالنسبة للبعض يرونها فى شكل مختلف ، أما للبعض الآخر فيرونها كما هى .. فليسامحنا الله .. كم تؤلمنى رؤية هذه الوجوه الأسيرة التعسة والدموع فى عيونها » .

قلت فى غيظ :

ــ « هذا شىء معتاد .. أن تسحرى شيئًا فى عين البعض ولا تـسحريه فى عين البعض الآخر .. إذن هاته السيدات مسحورات كخنازير .. أنـتن ترينهن كنساء .. إذن لا مشكلة .. أنا الوحيد الذى يراهن خنـازير وهـذه ليست مشكلة .. سوف أعاملهن كسيدات » .

ثم سألتها :

ــ « وهؤلاء الرعاة الثلاثة ؟ هل هم مسحورون كذلك ؟ »

قالت :

ــ « الغيلان ؟.. هل تغيروا فى عينك كذلك ؟.. ما أقوى هـذا الـسحر يا سيدى ! »

تركت ساندى واقفة كالموتى .. وانطلقت نحو حظيرة الخنازير .. حييت الرعاة ثم أجريت صفقة بأن اشتريت منهم القطيع كله مقابل 16 بنـسًا .. هذا وقت مناسب قبل أن يأتى الإقطاعى غدًا ليأخذ نصف الخنازير فتـصير ساندى بلا أميرة ..

قال لى أحد الرعاة (وهو أب لعشرة أطفال) أن الجـابى جـاء العـام الماضى ليأخذ خنزيرًا فعرضت زوجة الراعى عليه أن يأخـذ طفـلاً بـدل الخنزير ، ما دامت لن تتمكن من تربيته ..

فتحت الحظيرة وطلبت من ساندى أن تتبعنى ..

كانت دموع الفرحة تسيل من عينيها .. وراحت تقبل الخنازير وتداعبها . شعرت بالعار منها ، شعرت بالعار من الجنس البشرى كله .

أمامنا عشرة أميال نقود فيه هذا القطيع للبيت . لا يمكن أن نعامل بغلظة هاته السيدات لأن ساندى لن تسمح بذلك . كان على كذلك أن أنادى كل خنزير بجلالتكم أو سعادتكم ..

هناك أميرة شقية راحت تجرى هنا وهناك .. قبضت على ذيلها فى النهاية وعدت بها وهى تصرخ .. كانت معنا مس أنجيلا بوهون والآنسة إلين كورتمينز .. وما تبدوان لى كخنزيرين أسودين .. الأولى لها نجمة بيضاء فى جبهتها . علينا أن نحافظ على لحم السجق هذا ..

بالطبع لم أر فى حياتى مشهدًا كهذا .. ولا سمعت شيئًا كهذا . ولا شممت شيئًا كهذا ..

قضينا ليلتنا عند أحد الإقطاعيين الذى قبل أن يستضيفنا .

* * *

الفصـل الثانى عشـر

الحجــاج

كنت فى غاية الإرهاق عندما أخلدت للنوم فى النهاية . ما أمتع استرخاء العضلات بعد هذا كله ! لكنى لم أستطع النوم .. كانت الضوضاء تضايقنى ، ورحت أفـكر فى ساندى .. كانت فتـاة عاقلة بالقدر الذى تستطيع هـذه المملكة أن توجده . أحيانًا كنت أشعر أنها مجنونة .. من السهل جـدًّا أن تعتبر الشخص الذى لم ينل تعليمك مجنونًا . كان السحر عندها هو الجواب عن كل شىء ، فلو حكيت لها عن عربة تسير بلا خيول أو رجـل يحلــق فـوق السحب فى منطـاد ، فلن تندهش .. إنها تعـرف هـذا كله .. إنه السحر ..

وقت العشاء جاءت ساندى بالخنازير وراحت تطعمها فى رفـق وهــى تنادى كل خنزير باسمه . لم أستطع الأكل فى وجود خنازير .

سـألت ساندى عن أسرتها . فقالت :

ــ « ليست لى أسرة .. لم تسأل ؟ »

ــ « وهذا البيت .. ألا تقيمين هنا ؟ »

ــ « ليس لى بيت » .

قلت لها :



ــ « أما وقد انتهت مهمتنا بنجاح فلسوف أعود للوطن لأقدم تقريرى » .

قالت :

ــ « أنا كذلك ليس لى شىء هنا » .

ــ « ولماذا ؟ »

ــ « أنا لا أتخلى عن فارسى أبدًا .. سأظل معك حتى يقتلك فارس آخر ويفوز بى » .

تنهدت وقلت لها أن نتحرك .

بدأنا الوداع .. واقترحت على خدم القلعة أن ينتهزوا الفرصة لينفضوا الغبار المتراكم على كل شىء .. لكنهم قالوا إن فى هذا خرقًا للمعتاد .. هذه أمة مستعدة لأى جريمة ما عدا خرق المعتاد .

انطلقنا فى طريقنا . كان أول ما قابلناه موكبًا من الحجاج .. لم يكن الموكب فى طريقنا لكننا انضممنا له . كنت قد قررت أنه لو أردت حكم هذا العالم فعلى أن أندمج فيه أكثر .

كان هذا الحشد من الناس سعيدًا مفعمًا بالحياة والتهذيب .

كانت ساندى تعرف مقصد رحلة الحج هذه وقالت لى :

ــ « هذه رحلة للوادى المقدس .. حيث يباركهم النساك ويشربون من الماء السحرى الذى يزيل عنهم خطاياهم » .

ــ « وأين مصدر الماء هذا ؟ »

ـ « على بعد رحلة يومين . على حدود مملكة الوقواق .. هناك مجموعة نساك لا يتبادلون الكلام مع بعض . لا يأكلون تقريبًا .. لا يستحمون .. يصلون طيلة اليوم . يظلون بثوب واحد طيلة العمر إلى أن يتحلل . كان الماء شحيحًا هناك حتى صلى كبيرهم فتدفق الماء فى الصحراء . استحم الرهبان فى الماء فصاروا بيضًا كالثلج .. هكذا أغضبوا كبيرهم الذى منعهم من الاستحمام ، فجف الماء من جديد .. وذهبت كل صلواتهم وقرابينهم هباء » .

ـ « غريب أن يكتشف المرء أن هناك كسادًا فى هذه التجارة .. أكملى » .

ـ « قام كبيرهم بإعادة الينبوع للتدفق .. ومن حينها لا يستحم فيه أحد أبدًا .. جاء من كل حدب هؤلاء الذين سمعوا عن المعجزة .. وكبر الدير وجاءت راهبات وأنشأن دير راهبات كبيرًا .. »

عند العصر قابلنا موكبًا آخر لكنه خال من السعادة . لا نكات ولا ضحك .. كان مكونًا من رجال ونساء .. أطفال وشيوخ .. حتى الرضع كانوا لا يبتسمون . كل الوجوه يبدو عليها القنوط . كانوا عبيدًا كما هو باد من السلاسل التى ربطوا بها وكانت هناك سلسلة عملاقة تربط الأعناق كلها ما عدا الأطفال .

لقد مشوا على أقدامهم 300 ميل وأكلوا أقل الطعام .. وكانت القيود قد ملأت جلدهم بالجروح المتقيحة . كانوا فى البداية مئة لكن بيع نصفهم فى

الطريق ، والنخاس يتقدم الموكب على حصانه ملوحًا بسوط فيه عقد صغيرة فى نهايته ..

كل الوجوه كانت رمادية يكسوها الغبار .. يمكنك أن تكتب فوقها بإصبعك . هناك على الوجه شكل واضح يمكن قراءته بسهولة ؛ هو مجرى الدموع ..

من حين لآخر يهوى السوط على كتف امرأة فيمزقه ...

أبدى الحجاج إعجابهم ببراعة الرجل فى الضرب بالسوط . لقد اعتادوا هذه المشاهد حتى لم يعودوا يهتمون بها . يرون أن هذا شىء معتاد فى الحياة .

تمنيت أن أحررهم لكن هذا لا يصلح .. لا أريد أن أشتهر بمحاربتى لكل قوانين المملكة والتمرد . يومًا ما سوف أقضى على نظام الرق لكن ليس الآن .

قضينا ليلتنا فى حانة بقرية . فى الصباح جاء فارس يبلغنا بمصيبة . لقد جف الينبوع مرة أخرى . تساءل الحجاج فى ذعر :

ــ « هل هناك من استحم مرة أخرى ؟ »

ــ « لا نعرف .. نشك فى ذلك .. لا بد أنها خطيئة أخرى » .

ــ وكيف يشعرون ؟ »

ـــ « لا يمكن وصف ما يحسون .. لقد جفت البئر منذ تسعة أيام . كلهم يصلون ويبتهلون .. فى النهاية طلبوا أن تذهب إليهم يا ســيدى لتجــرب سحرك . إن الساحر مرلين هناك وقد قال إنه سيعيد الماء ، لكنـــه يجــرب منذ ثلاثة أيام بلا جدوى . لم يحصل على كمية ماء تعادل العــرق الـــذى يسيل منه أثناء المحاولة » .

كان الإفطار معدًا فأفطرنا ، فتناولت قبعة الفارس وكتبت داخلها :

أرسل اثنين من المقدار الأول . واثنين من الثانى وستًا من الرابع .. مع بعض الأشياء .

وقلت له :

ـــ « اذهب لكاميلوت بسرعة أيها الفارس الشجاع .. واعرض المكتوب على خادمى كلارينس . قل له أن يجلب هذه المواد للوادى المقدس بأقصى سرعة » .

ـــ « سأفعل أيها الرئيس » .

وانطلق مسرعًا ..

* * *



الفصل الثالث عشر

النافورة المقدسة

لم يتصرف الحجاج بتعقل كما يفعل الأرنب أو الغراب أو الدودة فى ظروف مماثلة .. أى أنهم لم يعودوا أدراجهم . كانوا مشتاقين لرؤية النافورة المقدسة .. فلما عرفوا أنها جفت والمعجزة زالت ازدادوا حماسة لرؤية المكان . لا يمكن فهم البشر فعلاً .

استمرت المسيرة نحو صوت دقات جرس يدوى من بعيد . كان هذا ديرًا بلغناه قبل الظلام . قدموا لنا المسكن وأرسلوا النساء ليبتن فى دير الراهبات . كانت الأجراس تدق فى آذاننا مباشرة الآن .. بينما الرهبان يروحون ويجيئون فى كآبة .

كانت فرحة رئيس الدير المسن عظيمة بلقائى ، وأدمعت عيناه وهو يقول :

ــ « لا تتأخر يا بنى .. أعد لنا الماء بسرعة . لقد حل بنا الخراب وضاع عمل مائتى عام .. هذا هو سحر الشيطان » .

قلت له :

ــ « سوف أستعمل أدوات خلقها الله .. لكن هل يعمل الساحر مرلين بأدوات يقرها الدين ؟ »

ــ « آه .. وعد بذلك يا بنى ... وعد بذلك .. ألن تساعده ؟ »

ــ « لا أؤمن بخلط الأساليب يا أبت .. ثم إنه تولى المقاولة وليس من حقى لمس العمل إلى أن يعلن فشله » .

قال رئيس الدير :

ــ « سوف آخذ المقاولة منه . الأمر بالغ الخطورة ، ثم إن الكنيسة لا تبالى بالقانون .. الكنيسة هى القانون » .

قلت له :

ــ « لا تجبره على شىء وإلا وضع تعاويذ سحرية تعطل عملى شهرًا ... هل تريد أن نتعطل شهرًا ؟ »

كان وجودى قد أفشى جوًا من التفاؤل فى الدير ، حتى إن الرهبان أكلوا وجبة طيبة لأول مرة هذه الليلة ، وارتفعت معنوياتهم . حكينا حكايات مؤثرة عتيقة ، واهتزت الكروش بالضحك . حكيت لهم قصة مضحكة فلم يفهموها .. حكيتها خمس مرات فبدءوا يضحكون .. حكيتها خمس عشرة مرة فانفجروا فى الضحك وتحولوا لغبار كنسته بالمكنسة ..

ذهبت للينبوع فى اليوم الثانى فوجدت الساحر مرلين يجرب ويطلق السباب . كان الأمر كما توقعته .. هذه النافورة بئر عادية تم حفرها ولا معجزات تحيط بها . يمكننى أن أحكى أكاذيب مماثلة عنها ويدى مربوطة خلف ظهرى .

كانت البئر فى الصخر ، وقد أحاطت بها المشاعل .. وكان الماء يؤخذ منها بدلاء يسحبها الرهبان ليتدفق فى الخارج عبر مجار صخرية . لو أن مرلين نزل للبئر واستعمل عينيه لاستطاع تحديد السبب الفيزيائى بسهولة .

خطر لى أن البئر يتسرب منه الماء .. هناك صخور فى القاع سقطت وشرخت فتكونت بينها شقوق . وهكذا هرب الماء . وتأكدت من هذا عندما تدليت فى البئر وفحصت الجدران على ضوء شمعة .

صعدت للسطح فاستدرت للرهبان . خطر لى أن هناك من فعل ذلك مثلى عندما جفت البئر أول مرة . هناك من تدلى ورأى الشرخ وسده ثم خرج ليقول لكبير الرهبان إن البئر لن تجلب الماء ما لم يعاقب من استحموا فيها .

أقنعت الرهبان أن العملية صعبة جدًا .. إن الدعاية الذكية يمكنها أن تحول شيئًا تافهًا لشىء مهم .

كنت عائدًا لبيتى عندما قابلت ساندى . كنت قد بدأت أحمل إعجابًا خاصًا بهذه الفتاة .. برغم جهلها فقد أدركت أنه من الصعب مقارنة معلومات فتاة من القرن السادس بتقنى من القرن التاسع عشر . ثم إننى كنت منبهرًا بلغتها التى هى أم اللغة الألمانية ..

كانت رحلتنا بين النساك غريبة .. كل واحد من هؤلاء يمارس عملاً عجيبًا .. أحدهم تعرى تمامًا وترك الحشرات فى المرج تلتهمه .. واحد

يصلى على أربع طيلة اليوم .. وواحد نذر ألا يرقد أثناء نومه بـل يظـل واقفًا يغط .. هناك امرأة عجوز أسود جلـدها مـن الحرمـان مـن مـاء الاستحمام سبعين عامًا ..

زرنا أحد النساك ذوى الشهرة المدوية فى العالم المسيحى . وكان زحام كبير يحيط بمنسكه . كان يقوم بحركة متواصلة من ثنى جسمه بسرعة لا تصدق طيلة اليوم ، وقد خطر لى أن أربط آلة نسيج لتستفيد مـن هـذه القوى المبددة .. وهكذا بعت الكثير من القمصان للحجاج لمدة أربعة أعوام ، والأهم أنه كان يعمل حتى فى أيام الأحد .

* * *

صباح السبت ذهبت للبئر حيث كان مرلين يحرق الدخان وينطق بكـلام فارغ بأقصى ما يستطيع . قلت له :

ــ « كم يستغرق هذا العمل يا زميل ؟ »

قال لى :

ــ « أنا أسـتعمل أخطـر تعويذة عرفها سـادة العلوم الخفية .. ولـن تفشل » .

ولمدة عشرين دقيقة تصاعد دخان غطى على كل شىء . فسقط أرضًـا يلهث منهكًا .. وقال لكبير النساك :

ــ « هذه أشر روح فى الكون حلت بهذه البئر .. روح لا أجرؤ على تسميتها يا أبت .. لكنها لن تفارق البئر وهذه البئر لن تفيض مرة أخرى أبدًا ... »

نظر لى كبير الرهبان فى هلع يسألنى عن رأيى .. فقلت له إن جزءًا من القصة حقيقى . وأنا أطلب أن يسمحوا لى بأن أنفرد بالبئر ودائرة نصف ميل من حولها .. من الشروق إلى أن أزيل التعويذة .. المرء يمكن أن ينجح أو يفشل وقد يجرب . أنا سأجرب ..

نظر لى مرلين بسخرية وقال :

ــ « هل تجسر على نطق اسم الشيطان الذى حل بالبئر ؟ »

ــ « نعم أجسر .. وكل ما عليك هو أن تعود لبيتك عند الملك آرثر وتتولى شأن الطقس » .

كانت هذه سخرية منه لأن كل تنبؤاته بالطقس كانت تفشل .. لذا استبد به الغيظ وأصر على أن يبقى ليستمتع برؤيتى وأنا أحاول وقف التعويذة .

جاء رجلاى الخبيران ليلاً .. كانا يحملان على ظهر البغال كل ما طلبت من أدوات .. ماسورة من الرصاص .. نار إغريقية .. صخور ... شموع رومانية ..

عندما جاء المساء راح الرجال يعملون على البئر بخبرة .. وقبل الشروق بساعة كان الشرخ فى قاع البئر قد تم رتقه . وبدأ الماء يرتفع ، فدارينا أدواتنا وذهبنا لننام .

انتهى القداس عند الظهر فذهبنا للبئر .. لقـد ارتفع المـاء خلال تسع ساعات لمسـتواه المعتـاد . جاء الرهبـان ومعهـم مرلين ليروا ما تـم لكنهم وقفـوا خـارج الدائرة التى طلبتها .. الزحـام فى كل مكان حتـى إنه بوسـعك المشى فوق الرءوس كأنها سجادة . سـاد الـصمت لأرفـع التوقعات ، ثم جعلت بعض الرجال يغنون باللاتينية .. الغرض إضفاء جـو من الرهبة . وقفت على المنصة وفتحت ذراعى ثم ألقيـت هـذه الكلمـة المروعة :

ـ « كونستاتينبوليتانمكفايت .. ماشرجيشلافت ! »

وعلى الفور انطلقت ألعابى النارية لتنير السماء بالأزرق ثم الأحمـر .. تصايح الناس فى حماسة . وحانت لحظـة فـتح المـضخات .. أعـوانى ينتظرون هناك . فصحت فى الناس .

ـ « جاءت لحظة طرد الشيطان من البئر .. تمسكوا .. سـوف تـرون الماء المقدس يتفجر من باب الكنيسة !! »

وانتظرت حتى نقلوا الكلام إلى من كانوا بعيدين ، ثم صحت :

ـ « انظروا .. إننى آمر الشيطان بأن يهجر هذه البئر » .

راح الماء يتدفق عبر المواسير التى قمت بوضعها ليلاً ، ورأيت النـاس يتدافعون ويلثمون الماء .. يكلمونه كأنه صديق عائد

لقد هزمت مرلين وتوارى ... لفظت الاسم المســحور الذى لا يستطيع أحد نطقه ، وقد اعترف لى بعد ذلك أن أم هذا الشيطان ما كانــت لتنطــق اسمه بنفس البراعة .

وعنــدما اتجهت للكنيسة تراجع الجميع ليفســحوا لى .. كأننى كــائن خارق .. وقد كنت كذلك . كانت ليلة مذهلة منحتنى مجدًا لا بأس به .

* * *

الفصـل الرابـع عشـر

ســاحر منافس

بعد أيام رحت أراقب رئيس الدير مع الرهبان وهم ملتفون حول ســاحر جديد ظهر مؤخرًا . كان يلبس ثيابًا سخيفة مبهرجة كأنه طبيب نــصاب .. وكان يشوح فى الهواء .. بالطريقة المعتادة . وزعم أنه مشهور جدًا فــى آسيا .

كانت موهبته هى أن يخبرك بما يفعله أى شخص على ظهــر الأرض ، وما سوف يفعله . وقد سأله الرهبان عما يفعله مليكه فى آســيا ، فــراح يرقص قليلاً ثم قال :

ـ « الملك يضع فى هذه اللحظة بعض العملات فى كف متسول .. واحد اثنين ثلاثة .. كلها فضة » .

تصايح الناس فى حماسة :

ـ « ياللروعة !... »

حكى لهم عما يفعله زعيم الإنديز وما يفعله سلطان مصر .. وكلما حكى عن شىء تعالت أمارات الدهشة والانبهار بدقته . أدركت أن هذا الرجل لو استمر فلسوف أفقد أتباعى .. يجب أن أوقفه عند حده وأضع عــصا فــى عجلته . فسألته وأنا أضع يدى تحت الوشاح :

ـ « هل لى أن أسأل عن شخص معين ؟ »

ـ « سل ما تريد » .

ـ « سيكون هذا صعبًا .. »

ـ « لا صعاب عندى .. كل شىء متاح » .

ـ « إذن قل لى ما الذى أفعله بيدى اليمنى !! »

هنا شهق الجميع فى دهشة .. لم يخطر ببال أحدهم أنه من الممكن السؤال عن شخص ليس على بعد آلاف الأميال . لم يخطر لهم هذا من قبل . تردد الساحر كثيرًا فقلت :

ـ « هلم . هل بوسعك معرفة ما يفعله الناس فى الجانب الآخر من الأرض ولا تعرف ما يفعله شخص على بعد ثلاث ياردات منك ؟ ... لأنك لست ساحرًا .. »

هنا ابتسم الرجل وقد أراحت ابتسامته الناس لأن هذا يعنى أنه لن يدمرهم .. وقال :

ـ « ليس من الخافى على أحد أن السحرة العظماء لا يهتمون إلا بما يحدث للملوك والأمراء .. لهذا لو سألتنى عن الملك آرثر لأجبت .. »

ـ « وماذا يفعل الملك آرثر ؟ »

ـ « إنه نائم فى قلعته نومة مريحة » .

قلت :

ــ « الملك ليس نائمًا .. إنه على صهوة جواده .. »

لم يعد أحد يعرف من يصدقه . تصادم السلطات . قال الرجل :

ــ « الملك والملكة نائمان الآن .. غدًا ينطلقان فى رحلة نحو البحر » .

ــ « هذه كذبة أخرى .. الملك والملكة فى طريقهما لهذا الوادى .. »

كانت هذه ضربة موفقة وقد جعلت الرهبان يشهقون فى إثارة . الحقيقة أننى كنت قد أقمت نظام اتصال يشبه أسلاك الهاتف .. من بلـــدة لأخـــرى تنتقل الأخبار .. وقد علمت أن الملك سوف يصل لهذه البئر يوم الثلاثاء فى الساعة الرابعة . لكن الناس صدقوا كلام الساحر الآخر ولم يستعدوا لقدوم الملك قط .. تأمل تفكير الناس !.. أنا الشخص الوحيد الذى جعلهم يـــرون معجزة فعلاً .. لكنهم برغم هذا يصدقون الساحر الآخر الذى لم يظهـــر أى دليل على قدراته .

برغم هذا رتبت لاستقبال الملك ببعض الحجاج والرهبان .

وفى الثانية ظهرًا ناديت رئيس الرهبان ليرى بعينيه موكب الملك قادمًـــا من بعيد .. بلا شخص يستقبله ولا أجراس تدق . سرعان ما جرى الرجل وراحت الأجراس تدق وراحت المبانى تتقيأ ما بها من رهبان وراهبات ..

لقد سقطت سمعة الساحر فى الوحل .. وبلغت سمعتى السماء . يجب أن تكافح لتبقى نجاحك فى هذا البلد .

* * *

عندما يسافر الملك أو يقرر أن يخرب بيت أحد النبلاء بتكاليف استضافته ، فهو يصحب معه بعض أركان حكومته .. وكان معه فى هذه المرة الهيئة التى تفحص المتطوعين للجيش . كان معظم هذه اللجان من الرهبان طبعًا لأنهم الوحيدون الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى زمن كهذا . وبالتالى هم لا يفقهون شيئًا فى الحرب واختيار الجنود ، بينما كنت أنا قد أنشأت فى خيالى كلية وست بوينت كاملة .

كان معظم المتطوعين جهلة تمامًا يعتبرون القراءة والكتابة عارًا ، ويعتبرون جدول الضرب شيئًا شيطانيًا .. أما عندما سألتهم عن قانون الجاذبية فقد قالوا إنهم كانوا متغيبين فلم يسمعوا آخر قوانين استنها الملك آرثر .

* * *

الفصـل الخـامس عشر

رحلة الملك واليانكى

أخبرت الملك بأننى أنوى التنكر كمتسول لأجوب البلاد وأعـرف حيـاة الناس المتواضعة . راقت له الفكرة وخطر له أن يشاركنى المغامرة .. لكنه كان حزينًا لأن السير لانسـلوت موجـود هنا . متى كان السير لانـسلوت موجودًا فالملكة لا تهتم إن جاء آرثر أو رحل .

كانت الملكة جنيفر بارعة الجمال ، لكنها مستهترة . وكانت لا تكف عن القلق على لانسلوت والسؤال عنه ، بينما لم تبد أى قلق على الملك .

عندما جاء المساء أخذت الملك لجناحى وقصصت له شـعره وسـاعدته على ارتداء الأسمال . وضعت سلطانية على رأسه ثم قصصت كل الـشعر الذى خرج منها . وقصصت شاربه وسالفه حتى صـار طولهمـا بوصـة واحدة .. ارتدى الصندل والعباءة فبدا منظره شيطانيًا ..

تنكرنا بنفس الطريقة ، فبدا منظرنا كالفلاحين أو الرعاة . ثيابنـا هـى الأرخص لذا يلبسها كل الفقراء .

خرجنا بعد الفجر بساعة ، ومشينا عبر بلاد نـصف مـستقرة .. كنـت أحمل حقيبة ظهر فيها بعض المؤن .. المؤن التى يمكن لملـك أن يعـيش عليها بعض الوقت .

وجدت له مقعدًا يجلس عليه على جانب الطريق ، ثــم ابتعــدت عنــه . الغرض الرئيس كان أن أجلس قليلاً ... فلم أكن أجلس فى حضرته أبـدًا . برغم أن هذا صار من ضروريات التخفى .

سمعت صوت جلبة فحسبتهم فلاحين استيقظوا مبكرًا ، ثم فطنت إلى أنه جمع من الفرسان المسلحين ، فجريت للملك وطلبت منه أن يقــف ويبــدو متسولاً متواضعًا ... حاول ذلك بصعوبة .. قلت له :

ــ « نحن بلا سلاح .. وهذا الحشد قادم . يجب أن يصدقوا أننا فقراء .. لن نبدو كفلاحين بل نفكر كفلاحين » .

وعد بأن يجرب .. لقد صرت أتصرف معه كأم تحاول جاهــدة أن تنقــذ ابنها من ورطة . كان يحاول جاهدًا أن يبدو طبيعيًا لكنه كان فاشلاً تمامًا .

مثلاً رأيته يخرج خنجرًا من عباءته وصدمنى هذا . ليس مسموحًا لنــا كعامة أن نحمل سلاحًا ..

قال لى :

ــ « أنت قادر على التنبؤ .. أنا معترف بأنك ساحر أقوى من مــرلين ، لكنه يتنبأ .. والتنبؤ أقوى من السحر » .

شعرت بأنه يجب أن أغير سياستى ، فقلت :

ــ « مرلين يمكنه التنبؤ بما سيحدث قريبًا أو خلال عشرين سنة .. أما أنا فبوسعى أن أخبرك بما سيحدث بعد مئات السنين . ربما 700 سنة . »

لم يكن عليك أن تبثت كلامك مع هؤلاء القوم .. كل ما عليـك هــو أن تقوله .. قلت له :

ــ « أنا أترك لمرلين عمليات التنبؤ السهلة لكنك تعرف مثلاً أننى تنبأت بقدومك قبل أن يقع بيومين .. »

كان الملك نهمًا لمعرفة ما سيحدث فى الــ 13 قرنًا القادمة كأنه يتوقــع أن يعيش فيها جميعًا .. هكذا رحت ألعب دور النبــى .. مارســت أفعــالاً مشينة كثيرة فى حياتى لكن هذا كان أسوأها ..

ذات مرة مر بنا فارسان . فوقف الملك إلى جانب الطريق وقــد أبــدى التواضع كفلاح لكنهما اندفعا جواره حتى كادا يمزقانــه تحــت الحــوافر . ما أن ابتعدا حتى وقف غاضبًا محنقًا .. نظر الفارسان لنا من بعيد ثم وجدًا أنه من العبث الاهتمام بحثالة مثلنا .. وفجأة أطلق الملك سـبة .. فانــدفع الفارسان عائدين نحونا والغضب يعميهما .

كان هذا هو الوقت المناسب كى أفجر الديناميت الذى ظللت طويلاً أحتفظ به فى حافظة ظهرى . كنت أدخره لعمــل معجــزة مــا .. هكــذا فجــرت الديناميت أمام الحصانين . بدا المشهد كأنه انفجار سـفينة بخاريــة فــى المسيسبى .. ولعدة دقائق أمطرت السماء علينــا دروعًــا وأجــزاء مــن الفرسان . وتخلفت حفرة سيجهد الناس أنفسهم فى فهمها لعدة أعوام .

أقنعت الملك بصعوبة أن هذه الخدعة لا يجب تكرارها .. والحقيقــة أن السبب هو أن هذا كان آخر ديناميت معى .

الفصل السادس عشر

الملك يتدرب

كان على أن أدرب الملك على أن يبدو فقيرًا .. لذا رحت أقول له :

ـ « اخفض ذقنك من فضلك .. لا تنظر للأفق من فضلك بل انظر للأرض .. هكذا أفضل .. لكن ثمة شىء مهم ناقص .. لا أعرف ما هو . امش ثلاثين خطوة لأملأ عينى منك .. هكذا . رأسك معتدل .. كتفاك معتدلان ... كل شىء صحيح وبرغم هذا شىء ما خطأ » .

ـ « وماذا أفعل لأكون مقنعًا ؟ »

ـ « سوف نمضى فترة هنا نتدرب على المشى .. وعندما ندخل كوخ أحدهم فعليك ألا تنادى رب البيت بالخادم أو الوصيف » .

ـ « سوف أناديه بالرجل الطيب » .

ـ « لا بأس .. لكن الأفضل أن تسميه (الأخ) .. »

ـ « أقول (أخ) لهذه القذارة ؟ »

ـ « نحن نحاول فعلاً أن نكون بهذه القذارة .. وعليك أن تطلب الطعام لك ولى .. وتطلب المأوى لك ولى . لو لم تفعل فلسوف يفترض صاحب الكوخ أننا لسنا متساويين » .

كان رأس الملك شبيهًا بزجاجة الساعة .. يستوعب كل شىء لكن عليك أن تعطيه حبة رمل فى كل مرة ..

لقد نجحت فى كل شىء لكن ظل كتفاه عنيدين يرفضان الانحناء . قلــت له :

ــ « تخيل أنك مدين وأنك فقدت عملك ــ وهو إصلاح حدوات الخيول ــ وأطفالك جياع وزوجتك مريضة .. »

كلام سهل لكنه غير قادر على التأثير على أحد . السبب هو أنه لا يوجد فى الكون مال كاف .. العمل العقلى يجلب الكثير من المال مقارنة بالعمــل اليدوى . بالإضافة لهذا هو ممتع . قانون العمل لا يتغيــر .. كلمــا زادت متعتك من العمل ، كلما كان أجرك أعلى ..

* * *

بلغنا ذلك الكوخ عند العصر فلم نر علامات حياة من حوله . كل شىء ينطق بالخراب والفقر .. والصمت يذكرك بصمت الموت .

كان الباب مواربًا فدنونا على أطراف الأصابع .. قرعنا الباب وانتظرنا . رأيت فى الظــلام خيــال امرأة على الأرض تبدو كأن مجيئنــا أيقظهــا . قالت لنا :

ــ « الرحمة .. لم يبق شىء هنا .. »

ــ « لم آت لآخذ شيئًا يا امرأة » .



ــ « أنت لست قسًا ؟ »

ــ « لا .. أنا غريب . »

فى الضوء الخافت رأيت مدى ضمورها ... قالت لى :

ــ « المكان لعنته الكنيسة .. فر بجلدك .. اتركنا أيها الغريب النبيل وخذ معك بركاتى » .

كان من الواضح أنها ظمآنة فبحثت عن وعاء خشبى وهرعت إلى الجدول القريب أملؤه بالماء ، وعدت للكوخ . كان الملك قد أزاح مصراع النافذة ليدخل ضوء الشمس والهواء . راحت المرأة تشرب فى نهم .. هنا سقط الضوء على وجهها فأدركت أنها مصابة بالجدرى !

قلت للملك :

ــ « اخرج من هنا يا سيدى .. فالمرأة مصابة بالوباء الذى هز كاميلوت منذ عامين » .

لكن الملك لم يتزحزح لأنه رأى أن الفرار عار .

قالت المرأة :

ــ « سيدى .. هلا صعدت هذا السلم وألقيت نظرة وأخبرتنى بما تجده ؟ لا تخف .. فقلب الأم لا يتحطم إذا كان محطمًا بالفعل » .

نظر الملك فوق السلم كما قالت فرأى رجلاً نائمًا .. قال لها :

ــ « هل هذا زوجك ؟ إنه نائم ... »

ــ « الحمد لله أنه نام .. ولن يوقظه شىء أبدًا فقد مات » .

تسلق الملك السلم ثم هبط وثمة شىء رقيق تحت إبطه . فتاة فى الخامسة عشرة نحيلة جدًا تموت بالجدرى . كانت هذه هى الشجاعة ذاتها .. مواجهة الموت الأكيد فى هذا المكان المظلم بلا مهرب ، ومن دون شهود يقرون بشجاعتك . إنه يحمل الموت بين يديه .

أرقد الفتاة جوار أمها فراحت الأم تملس عليها وتلثمها .. كدت أسقى الفتاة فقالت الأم :

ــ « لا . هى لا تتعذب .. هذا أفضل . ربما أعادها الماء للحياة بينما لا يوجد ما تعيش من أجله .. أبوها وأخواها رحلوا . الكنيسة لعنتها .. »

وحكت لنا مأساتها منذ كانت أسرة سعيدة .. سعيدة بمعنى أن أفرادها لم يموتوا إلى أن استولى إقطاعى على أرضهم الصغيرة ، وسجن ابنيها .. وعاشوا على الكفاف ثم أصيبوا بالجدرى ، فلعنت الكنيسة هذا الكوخ ومنعت دخوله .

قدمت لها بعض الطعام والشراب فرفضت بقوة .. لا تريد أن يقف شىء بينها وبين مصيرها . وفجأة نظرت لابنتها وصرخت :

ــ « ابنتى ! »

واحتضنت جسدها المتصلب بين ذراعيها .. لقد شعرت بقدوم الموت .



* * *

الفصل السابع عشر

مأساة فى العزبة

عند منتصف الليل انتهى كل شىء وجلسنا مع أربع جثث ، فغطيناها كيفما اتفق وأغلقنا الباب متأهبين لنواصل الرحلة . لم يكن مسموحًا لهم بالدفن على الطريقة المسيحية ، بل هم أقرب لكلاب أو مجذومين .

سمعت صوت خطوات فأصابنى الهلع وابتعدت بالملك .. لا يجب أن يرانا أحد نغادر هذا البيت الذى منعت الكنيسة دخوله .

سمعنا صوت دقات على الباب فارتجفنا ، وجاء صوت يقول :

ــ « أبى .. أمى .. لقد تحررنا .. لدى أخبار رائعة لكما .. لماذا لا تردان ؟ »

هنا انفتح الباب وعرفت أن هذين الرجلين هما ابنا السيدة ... سيجدان جثث أهلهما . فررنا بسرعة من الكوخ لأننا نخشى لحظة أن يكتشفا الجثة .. رحت أجرى فى الطريق وتبعنى الملك .

حاولت أن أبعد المشهد عن ذهنى فقلت :

ــ « أصبت بنفس المرض من قبل لذا أنا منيع ضده .. لكن بالنسبة لك ... »

كان الملك يفكر ثم قال لى :

ــ « كيف تحرر هذان ؟ أعتقد أنهما هربا ولم يطلق سراحهما » .

ــ « أعتقد هذا » .

ــ « إذن كان علينا أن نقبض عليهما ونسلمهما للـشرطة .. مالكهمـا لا يجب أن يعانى العار » .

كان هذا هو الأمر .. لقد ولد هكذا وتربى هكذا .. دمـه يفـيض بهـذه القسوة ولا يرى العالم إلا هكذا . لا يرى عارًا فى العبودية وتعذيب البـشر لكنه يرى العار فى هروب هذين من سجن سيدهما .

كانت هناك غابة مظلمة قررنا اجتيازها .. وكانت هناك عاصـفة دانيـة بدأت السماء تضىء بالبرق منها .

مشينا فى الظلام فاصطدمت بشىء ثقيل لكنه طرى نوعًا ... وهنا التمع البرق فرأيت وجـه رجـل مشنوق من أحـد أغصان شجرة !... بدا مـع العاصفة كأنه يتلوى .. مشهد شنيع . يجب أن نقطع هذا الحبـل فلربمـا بقيت بعض الحياة فى الرجل . لكن آرثر اعترض :

ــ « لو كان قد شنق نفسه فهو قد قطع علاقته بالرب ويستحق أن يظل معلقًا ، ولو كان هناك من شنقوه فلا بد أن لهذا سببًا » .

واصلنا المشى فعددنا نحو ستة مشنوقين ، ثم مر بنا رجـال يطـاردون بعضهم .. وتعالى صوت زئير من حناجر رجال .. ثم رأينا عزبة تحتـرق ومزيدًا من رجال يركضون . طلبت من الملك أن نتوارى فى الغابة لأن هذا ليس مكانًا آمنًا للغرباء .

مضى الوقت ثم خمد اللهب وكفت الأصوات ..

فررنا بعيدًا نحو ستة أميال من هذا المكان ، وطلبنا المبيت لدى تاجر فحم . سألتنا زوجته عما إذا كنا سمعنا عن الأحداث البشعة فى عزبة أبلاساور ..

نمنا حتى الظهر ثم صحونا جائعين .. لدرجة أن طعامهم الريفى المكون من بصل وخبز أسود بدا رائعًا للملك . حكت لنا الزوجة عن حريق شب فى العزبة أمس وتم إنقاذ الأسرة كلها ما عدا المالك .. وجدوا المالك على بعد ميل مقيدًا ومطعونًا ، واتهموا أسرة معينة تعرضت لظلم من هذا المالك . وتم اعتقال أفراد هذه الأسرة جميعًا وشنقهم .. زوج المرأة كان ضمن العصابة التى أعدمت المتهمين . لقد تم ذبح أو شنق 18 شخصًا .. أما السجناء فى قبو العزبة فقد فروا .. لا بد أن من بينهم ابنى تلك الأسرة المبتلاة بالجدرى .

لاحظت أن هؤلاء القوم ينحازون لسادتهم وليس لطبقتهم .. فى أى صراع بين سيد إقطاعى وبين رجل فقير مثلهم ، فهم يقهرون الفقير ويسحقونه . هذا محبط جدًا لرجل يحلم بتكوين جمهورية .

لكنى برغم كل شىء أدركت أن تاجر الفحم مسرور نوعًا بما حدث لمالك العزبة . هناك جذوة غضب لدى هؤلاء القوم تسمح بتكوين جمهورية .

كنت أحلم .. أحلم باستمرار الملكية حتى يموت آرثر ، ثم إزالة النبلاء وإرغامهم على امتهان أعمال مفيدة ، ثم جعل الجميع متساوين .

الفصل الثامن عشر

اليانكى والملك يباعان كرقيق

للأسف بدأ بعض الفلاحين يتشككون فى أمرنا ، وأبـدى الملـك بعض الآراء الغريبة مما جعلهم يطاردوننا إلى الغابـة ويقـذفوننا بالحجـارة .. تسلقت أنا والملك إحدى الأشجار ، لكن الفلاحين أشعلوا النـار .. وهكـذا وجدنا أننا نوشك على الاختناق من الدخان ..

وثبنا من فوق الشجرة ونحن غارقان فى الدخان والسعال ، وفجأة سمعنا صوت فارس يقول :

ــ « توقفوا وإلا فأنتم رجال موتى ! »

ما أجمل هذا الصوت !.. كل مخايل هـذا الفـارس تـدل علـى النبـل والسيطرة ..

تراجع الجمع الغاضب بينما تفحصنا الفارس ثم سألهم :

ــ « ماذا تفعلون بهذين ؟ »

ــ « هما رجلان مجنونان يا سيدى » .

ــ « أحقًا لا تعرفون من هما ؟ »

ــ « أيها السـيد النبيـل .. هما غريبـان لا يعرفهمـا أحـد . وهمـا متوحشان » .

قلت للغريب :

ـــ « نحن مسالمان يا سيدى .. نسافر فى سلام .. ولولا تدخلك الشجاع لقتلنا هؤلاء القوم » .

قال الفارس لرجاله :

ـــ « اضربوا هذه الحيوانات بالسوط لتعود لأعشاشها » .

هنا فر الفلاحون بينما الفرسان يجلدونهم .. ثم أمرهم الفارس أن يضعونا على سرجى حصانين . ومشينا فى خلفية الموكب بين الخدم ... ثم قضينا الليل فى حانة ، فتناول السيد العشاء ثم أخلد للنوم فلم نره إلا فى الصباح .

عرفنا فى الصباح أن الفارس يدعى لورد جريب وأرضه تقع على مسيرة يوم ، وقد أصر على أن نصحب موكبه حتى نكون فى أمان حتى نبلغ المدينة التالية .

وصلنا للمدينة حيث زحام الناس فشكرنا اللورد وترجلنا ، ثم اقتربنا من تجمع للناس لنرى مصدر اهتمامهم . كان هذا حشدًا من العبيد المقيدين بالأصفاد ..

لم أستطع إبعاد عينى عن هذه المهانة للبشرية .. نسيت أننى من العامة وتذكرت فقط أننى إنسان ... وتحمست .. فجأة .. كليك !.. سرعان ما وجدت أننى والملك مكبلان بالأصفاد !

ونظرنا لنجد أن الخدم المحيطين بنا يراقبون الموقـف .. لقـد كـانوا يعرفون . وقال اللورد للخدم :

ــ « خذا هذين العبدين وقوما ببيعهما ! »

ثار الملك آرثر وطوح بأصفاده ، لكن الأوغاد تكاثروا علينا .. وسرعان ما وجدنا أيدينا مكبلة خلف ظهورنا . وصاح الملك :

ــ « أنا لست عبدًا !! »

هنا قال أحد الخطباء فى السوق :

ــ « إذن أثبت أنك رجـل حـر .. عليـك أن تبرهن لنا على أنك لست عبدًا ... نحن نعتمد على كلام سيدك » .

صرخ الملك آرثر :

ــ « سيدى ؟ ليس لى سيد ... أنا السيد » .

الخلاصة أنه تم بيعنا فى مزاد .. بعد مئات السنين فى الجنوب الأمريكى سيباع ناس أيضًا لأنهم لا يستطيعون إثبات أنهم أحرار ، لكن تأثير التجربة الشخصية كان قاسيًا .

الأسوأ أن هذا البلد كان رخيصًا لذا تم بيعى بسعر يثير الخجل . بيع ملك إنجلترا بسبعة دولارات وتابعه بتسعة بينما كان الملك يـساوى 12 دولارًا على الأقل ..

قام النخاس بربطنا فى سلسة طويلة فى مؤخرة بضاعته ، وبدأنا المشى مارين بكامبنت .. من الغريب أن يمشى ملك إنجلترا وتابعه مصفدين تحت عيون الجميع فلا يهتم أحد الفضوليين بالأمر . هذا يدل علـــى أن الملــك والصعلوك متساويان ما دمت لا تعرف . فقط عندما تعرف أنه ملك تتقطع أنفاسك .. نحن حمقى .. لا شك فى هذا ..

* * *

أعتقد أن أشد ما أحزن الملك ، لم يكن سقوطه من قمة المجتمع إلـــى القاع ، بل ما حز فى نفسه هو الثمن المهين الذى بيع به . صدع رأســـى محاولاً إقناعى أنه لو كانت الحياة عادلة لساوى 25 دولارًا ، وأنا أشك فى أن العالم رأى ملكًا يساوى هذا السعر قط ..

وقد تكفل النخاس بتحويل الملك إلى عبد فعلاً . لا داعى للوصـــف لكـــن أؤكد لك أنه خلال أسبوع كانت السياط قد مزقت ظهره . لكن روحه ظلـــت شامخة . لم ير النخاس من قبل عبدًا يظل رجلاً حتى يموت . فالملك كـــان أكبر من الملك بكثير . كان رجلاً .. والرجل لا يمكن سحقه .

كنت فى ذلك الوقت راغبًا بشدة فى التحرر .. فى الفرار .. لقد أقنعـــت الملك من قبل بعدم التهور ، ولكنى أتوق للحرية بـــشدة . وضـــعت خطـــة سوف تستغرق وقتًا وصبرًا ..

كنا نمر بمغامرات عــدة . ذات مرة مررنا بموكب كبير ويــا لــه مــن موكب !.. يخيل لك أن كل رعاع المملكة كانوا فيه . كانت هنــاك عربــة وفوقها تابوت .. وفوق التابوت فتاة حسناء ترضع طفــلاً . فــى عينيهــا دموع لكن رضيعها يضحك ويحتضن ثديها بيده الصغيرة المكتنزة . كــان الرعاع يجرون جوار العربة وهم يطلقون السباب وأفظع الألفــاظ .. كنــا خارج لندن وبدا لى أن هذا هو المجتمع (اللندنى) ..

كانت هناك مشنقة ، وقد جاء جلاد ساعد الفتاة على الصعود فوق مقعد . وقف المأمور جوارها ينظر للوجوه المحملقة ، وبدأ يحكى قصتها ..

ــ « القانون هو العدل .. أحيانًا يخطئ القانون فلا نملك سوى أن نصلى من أجل روح من سقطوا تحت ذراع القانون . القانون حكــم علــى هــذه الشابة بالموت . كانت هذه الفتاة ابنة 18 عامًا زوجة سعيدة وأمًّا . وكان زوجها يكافح للظفــر بلقمــة شريفة ، ثم حدث ما جعلهم يرسلونه عبــر البحار .. الزوجة بددت كل ما تملكه من أجل الطعام ، وعندما نفد ما لديها طردت فى الشارع وراحت تتسول . فى النهاية سرقت قطعة قماش وقبض عليها .. وقد تعاطف معها الجميع ، لكن المدعى العام أصر على أنها مدانة . لا يمكن الصفح عن هذه الجريمة أمام المجتمع . وهكذا حكم القاضى عليها بالموت فهب صاحب قطعة القماش يرتجف ويصرخ : البائسة .. لم أعرف أنه الموت !!. وانتحــر فى نهاية اليــوم . هكذا أضيف موته إلى جــرائم الفتاة .. »

وضعوا الأنشوطة حول عنقها بينما كانت تقبل طفلها فى نهـم . وكـان الطفل يضحك . مما حرك القلوب حتى قلب الجلاد نفسه . وانتزع الكـاهن الطفل من بين ذراعيها . فصاحت :

ـــ « طفلى سيموت .. لا أم ولا أب ولا بيت .. سيموت » .

قال الراهب :

ـــ « لديه هذا كله فأنا سأربيه حتى أموت » .

بدا على وجهها تعبير من الامتنان .. تعبير حملته معها للسماء للأبد .

* * *

الفصل التاسع عشر

المـــأزق

بدت لنا لندن كقرية كبيرة .. وقد قابلنا الكثير من الفرسان الذين نعرفهم ، لكنهم لم يعرفونا فى هذه الأسمال التى نلبسها . مرت بى ساندى على بعد خطوات فلم تنظر لى على الإطلاق .

لكنى سررت إذ لمحت بائع صحف . ولمحت سلكًا ينحدر من بيت لبيت .. كان هذا هو سلك التلغراف .. السلك الذى علمته لهؤلاء القوم ، وكان هو سبيلى للفرار لو حصلت على جزء منه . كنت أتمنى أن نفر ذات ليلة أنـــا والملك .. نقيد النخاس ... نلبسه ثيابنا .. نضعه ضمن العبيد ونفر نحن ..

كان الملك قوى الجسد مهيبًا لكن أحدًا لا يريد عبدًا كهذا .. أما أنا فقـــد صـــار سعرى 22 دولارًا بلا مناقشة ، ولم يكن أحـــد راغبًا فى دفع سعر كهذا .. هكذا عرفت أننى لن أفارق الملك فكلانا سلعة كاسدة ...

فقـــط لو وجدت قطعـــة حديد تصـــلح لفتـــح القفـــل . وقـــد اســـتطعت بالفعل أن أجـــد واحـــدة . قلت للملك إننا ســـوف نفك القيـــود وننتظـــر وعندما يأتى النخاس لتفقدنا ، سوف نقهره ونأخذ ثيابه ونفـــر .. راقـــت الفكرة للملك .

انتظرنا فى المساء حتى نام زملاؤنا العبيد . ليس من الحكمة أن تخاطر مع هؤلاء متوقعًا ألا يفشوا سرك .

كان فك القفل صعبًا .. فى كل مرة تحدث جلبة لا بد أن توقظ واحدًا من الغافين . فى النهاية تحررت .. وعدت رجلاً حرًا . تنهدت ثم رحت أجرب مع قيود الملك . لكنى تأخرت !... لقد ظهر السيد حاملاً شمعة ، فتكومت جوار رفاقى ورحت أغط حتى أخفى أننى صرت بلا أصفاد ..

تفقد الرجل النائمين ثم ابتعد وأغلق الباب . كان معنى هذا فشل الخطة .. صرخ الملك آرثر :

ـ « هلم .. هاته ! »

وثبت فى الظلام الدامس نحو الباب قبل أن ينغلق وخرجت أبحث فى الظلام ، فاصطدمت بشىء طرى .. لا بد أنه هو النخاس ، ودار بيننا صراع محموم . وسرعان ما ارتمينا على الأرض خارج السرداب نتقاتل .. جاء مجموعة من الحراس حاملين المشاعل وفصلونا عن بعض ، ثم اقتادونا بعيدًا . يبدو أنهم يريدون أن يلقوا بنا فى الحجز .

لقد فشلت مهمتى .. لكن ماذا يفعل النخاس عندما يجد أن مهاجمه هو أنا ؟ وماذا لو سجنونا فى مكان واحد ؟ لكنه أدار وجهه لى فأدركت أنه ليس نفس الشخص !

* * *

كانت ليلة طويلة لكن الصباح جاء أخيرًا . عندما استدعونى للتحقيق كذبت وزعمت أننى عبد وأن سيدى قد مرض ، هكذا طلبوا منى أن أجرى بأقصى سرعة لأجلب الطبيب .. جريت فى الظلام بسرعة فاصطدمت بهذا

الرجل العامى . توسلت له أن يتركنى لأنقذ حياة سيدى الأيرل لكنه ضربنى ورفض تركى ..

صاح الرجل إن هذا كذب وإننى هاجمته فى الظلام بــلا ســبب ، فــأمر القاضى رجاله بجلده :

ـــ « اضربوه حتى يتعلم ألا يعترض طريق خادم أحد النبلاء .. ! . »

أطلقوا سراحى فى النهاية فعدت مسرعًا بلا إفطار إلى مخيم العبيد .

هنا فوجئت فى رعب أن الجميع قد رحلوا !... كلهم ما عدا نخاس العبيد نفسه الذى رقد على الأرض فاقد النطق .. كأن مشاجرة حدثت هنا .

كان هناك تابوت على عربة ، وكان بعض الحمالين يحملونــه ليــدخلوا المكان ..

حكى لى أحد الواقفين :

ـــ « كان هنا 16 عبدًا قد ثاروا على سيدهم وقتلوه » .

ـــ « كيف حدث هذا ؟ »

ـــ « قيل إن أغلى عبد هنا قد استطاع الفرار بحيلة ســحرية . عنــدما اكتشف السيد فرار العبد جن .. حمل العصا وانهال بها ضربًا على عبيده .. فقاوموا وضربوه بدورهم حتى مات » .



صحت :

ـــ « هذا شنيع .. وهل حوكم هؤلاء ؟ »



ــ « محاكمة ؟ لقد انتهت !.. هل حسبتها تستغرق أسابيع ؟ لم تستغرق سوى ربع ساعة .. »

ــ « وكيف وجدوا الفاعل ؟؟ »

ــ « لا يهتمون بتفاصيل بسيطة كهذه .. هذا هو القانون الذى تركه لنا الرومان .. لو أن عبدًا قتل سيده فكل العبيد لدى السيد يقتلون » .

ــ « ومتى يموت هؤلاء ؟ »

ــ « خلال 24 ساعة .. ربما بعد يومين إلى أن يجدوا العبد الآبق » .

شعرت بقلق وسألت :

ــ « هل سيجدونه ؟ »

ــ « بالتأكيد .. حراس فى كل مكان وعلى كل بوابة وعبيد ممن يعرفون شكله فى كل ركن » .

تركت الرجل .. وعند أول ناصية ابتعت عباءة مختلفة ، وربطت معظم وجهى بوشاح كمن أصيب بألم فى أسنانه .. ثم تسللت إلى مكتب التلغراف الموجود فى محل جزار هنا . دخلت ففوجئ الشاب المسئول وكاد يصرخ ، لولا أن وضعت يدى على فمه وقلت له :

ــ « لو صرخت فأنت ميت .. هلم اطلب كاميلوت » .

ذهل الفتى لأن مظهرى لا يوحى بأننى أعرف قدرات التليغراف . فليفعل هذا وإلا طلبتها أنا بنفسى فأنا رجل يائس .

ـ « اطلب كلارينس » .

ـ « كلارينس من ؟ »

ـ « لا يهم .. فقط اطلب كلارينس » .

لم أضيع وقتى فى تحية كلارينس بل قلت له :

ـ « الملك هنا وفى خطر . تم القبض علينا كعبيد . لا يمكننا البرهنة عن شخصيتينا . أرسل 500 فارس يقودهم السير لانسلوت .. ليأتوا حالاً ويدخلوا لندن من الباب الجنوب الشرقى .. ابحث عن رجل يلبس خرقة بيضاء على يده اليمنى » .

جاءت الإجابة :

ـ « سينطلقون خلال نصف ساعة » .

غادرت المكان قلقًا .. فرسان ودروع .. يتحركون فى التاسعة لكنهم لن يستطيعوا الإسراع .. لا أوحال والطرق ممهدة .. سيغيرون الخيول مرتين . سيصلون فى السادسة .. سيروننى بالشاش على ذراعى وسوف أتولى القيادة . ثم ننطلق للسجن لنحرر الملك .

لكن الأمر كان خطرًا .. عند أحد المنعطفات قابلت أحد العبيد من زملائى مع حارس . سعلت فنظر لى نظرة قاتلة .. لا بد أنه يتساءل متى سمع هذه السعلة من قبل .

جريت إلى زقاق جانبى خلف المتجر وزعمت للبائعة أننى ضابط متنكر أطارد العبيد الهاربين . لكنى وجدت نفسى بلا سابق إنذار أمام ضابط ، والأصفاد فى يدى .

غضبت وأقسمت أننى جئت من رحلة طويلة فى البحر .. فى النهاية تفحصنى العبد بدقة وعرفنى . هكذا كففت عن الكذب ولمته على تسليمى لهم ، لكنه لم يخجل بل اندهش .. وقال :

ـــ « ألم تفر أنت وتتسبب فى شنقنا ؟.. أنت المسئول .. هذا مضحك » .

برغم هذا كان فى كلامه منطق لا بأس به .

قلت للعبد :

ـــ « أنت تعتقد أنهم سيشنقوننا بعد يومين .. أليس كذلك ؟ .. هذا لن يحدث » .

قال :

ـــ « بل هو سيحدث ظهر اليوم !!.. لقد كانوا ينتظرون العبد الآبق وهم قد وجدوه !! »

هنا فهمت الموقف الخطر ...

هكذا لم يعد هناك تأجيل . عندما يصل الفرسان سيكون الشنق قد تم منذ أربع ساعات . لقد عثروا على العبد المفقود .

* * *

الفصـــل العشـــرون

سير لانسلوت والفرسان

بدأ المشهد خارج أسوار لندن .. يوم جميل صحو تتمنى أن تعيش فيـه لا أن تموت . لقد أعدوا منصة مريحة يجلس فيهـا النـبلاء وزوجـاتهم لمراقبة الإعدام . أنت تسلية نهاية الأسبوع لهؤلاء القوم .

وثب الملك ليواجه القوم وقد امتلأ بالكدمات والقذارة وأعلن أنـه هـو الملك آرثر ، وأنه سيعاقب بالخيانة كل من يمس شعرة من رأسه .. هنـا اندهش عندما قوبل بالضحكات والسخرية .

ـ « دعوا الملك يتكلم .. دعوه يسمعنا قطوف الحكمة » .

تحرك رؤساء الشرطة ببطء ، مما يعنى أن الطقوس ستبدأ . وتلوا علينا جرائمنا وحكم الإعدام .. ثم جاء القس يصلى على أرواحنا .

ما أجمل أن يظهر الفرسان الآن ! لكن هذا غير وارد بهذه السرعة ..

تدلى أول العبيد من المشنقة وراح يتلوى لأن أطرافه غير مربوطة .. ثم تلاه عبد آخر .

كان الأمر مخيفًا . أدرت رأسى جانبًا هنا لم أر الملك !... لقـد كـانوا يضعون العصابة على عينه !.. أصابنى الشلل مـن الرعـب .. ووضـعوا الأنشوطة حول عنقه . وثبت من مكانى صائحًا

هنا رأيت فى الأفق الفرسان الخمسمائة قـادمين !... كـانوا يركبـون الدراجات التى علمت المملكة صنعها .. ياله من مشهد عظيم .

لوحت بيدى بينما اندفع نحوى لانسلوت .. فصحت :

ــ « على ركبكم يا أوغاد ... حيوا الملك !... من لا يفعل سيبيت فـى الجحيم الليلة » .

كان من المثير أن ترى الحشد يتراجع فى رعب .. لقد كان من أهـانوه منذ دقائق هو الملك فعلاً . لقد امتلأت بالرضا والنشوة .. هذا مشهد مـن أروع ما رأيت ..

هنا رأيت كلارينس قادمًا بنفسه . قال لى :

ــ « مفاجأة مذهلة .. أليس كذلك ؟ قررت أن آتى بنفـسى وكنـت قـد جعلت الأولاد يتدربون على الدراجات قليلاً قبل أن نأتى » .

* * *

لقد عدنا لكاميلوت أخيرًا ..

بعد يومين جلست أطالع الصحف على مائدة الإفطـار ، فوجـدت فـى صفحة الإعلانات خبرًا يقول :

ــ « اللورد العظيم والفارس المغوار سير ساجامور لو ديزيوس سوف يتنازل ويواجه وزير الملك المسمى (هانك) والشهير بالسيد ، وهذا مـن أجل تسوية لإهانة سابقة . سوف يتواجهان فى الساعة الرابعة من صباح

اليوم السادس عشر من الشهر القادم . وستكون مواجهة حتى الموت لـن يسمح فيها بالصلح . وهذه أول مبارزة تتم طبقًا للقانون الجديد الذى يتيح لكل متبارز أن يستخدم السلاح الذى يروق له » .

راحت كاميلوت كلها تتكلم عن هذه المبارزة ..

لم يكن سبب اهتمامهم أن ساجامور وجد الكأس المقدسة ، وهـو لـم يجدها طبعًا ، ولا كان الاهتمام لأن أهم ثانى رجل فى المملكة يشارك فـى المبارزة . سبب الاهتمام أن هذه ليست معركة بين فارسين بل هى صراع بين ساحرين .. مرلين وأنا ..

كان الكل يعرف أن مرلين مشغول يزود دروع سير سـاجامور بقـوى سحرية .. من ضمن هذه القوى ثوب يجعله خفيًا . لا يستطيع أى عدد من الفرسان قهر رجل كهذا ..

جاء يوم المواجهة فنصبت الخيام .. وجاءت الأرستقراطية البريطانيـة كلها ورفرفت الرايات . كان هناك الكثير من الفرسان الذين يرغبـون فـى الخلاص منى لأن علاقتنا سيئة .

كانت هناك خيمتان .. واحدة لى والأخرى لخدمى . أعطى الملك إشـارة فظهر المنادون يعلنون أسباب المواجهة .. حبس الأكل أنفاسهم وراحـوا يلتهمون المشهد فى فضول .

من خيمته ظهر سير ساجامور كأنه جبل من الحديد والرمح فى يـده .. مشهد نبيل بحق .. وصاح الناس فى إعجاب وانبهار ..

عندما ظهرت أنا ساد الصمت .. ثم دوت الضحكات ... كنت ألبس ثيابًا مريحة خفيفة وبلا خوذة . وكان حصانى صغير الحجم لكنه رشيق سريع الحركة ناعم كالحرير .

قابلت برج الحديد ثم مشيت معه إلى حيث كان الملك يجلس جوار الملكة .. أدينا التحية فقالت الملكة :

ـ « أيها الرئيس .. أتحارب عاريًا بلا دروع ولا سيف ؟ »
أشار لها الملك بأناقة بما معناه أن هذا ليس شأنها ..

ظهر مرلين من مكان ما وبعثر على السير ساجامور مساحيق جعلته يبدو كشبح أبى هاملت . ثم إن الملك أعطى إشارة فاندفع مرلين كالسهم نحوى بينما تصاعد الصياح ..

عندما صار الرمح على بعد خطوات أزحت الحصان بخفة جانبًا فاندفع الفارس جوارى . كررت هذا التكنيك عدة مرات حتى تعالى التصفيق وجن السير ساجامور .. وراح يطلق السباب ..

أخرجت الأنشوطة من سرج حصانى وصوبتها نحوه .. كان قادمًا والدم فى عينيه فانتظرت حتى اقترب ثم قذفته بالحبل . هنا التف حوله وفقد توازنه ليسقط من على السرج ...

لم يكن الناس قد رأوا أساليب رعاة البقر هذه .. وراحوا يصرخون :

ـ « المزيد .. المزيد !! »

سقط سير ساجامور فاقدًا النطق وحملوه لخيمته ، ففككت الأنشوطة بسرعة وأنا أعلم أننى سأستعملها من جديد . على الفور ظهر السير هبرفيس دى ريفيل ليواجهنى بعد ساجامور .

انقض على فتحاشيته .. مر جوارى كالوميض .. وخلال لحظة صار سرجه خاليًا ..

من جديد هلل الناس .. كان على أن أواجه آخرين منهم سير جالاهاد .. وفى النهاية وجدت أننى أواجه سير لانسلوت نفسه !!

أنا فخور . أواجه فرسان المائدة المستديرة أمام عيون الملك آرثر والملكة جنيفر ..

من مكان ما جاء الفارس الذى لا يقهر وحوله عاصفة ، وفى لحظة كنت قد أسقطته من فوق جواده وانحنيت أحيى الجمهور الذى جن جنونه . لقد كان النصر ساحقًا فلن يضايقنى أحد بعد هذا ..

فجأة سمعت النفير يعلن قدوم مبارز آخر .. بدا لى هذا غريبًا ..

فجأة بحثت عن أنشوطتى فوجدتها اختفت . الساحر اللعين سرق السلاح الذى واجهت به كل هؤلاء . ومن خيمته ظهر ساجامور من جديد مندفعًا .. تظاهرت بأننى لا أراه حتى أقنع مرلين أن سحره فعال ، فصاح :

ــ « أعرف أن أذنك حادة السمع .. لا ترانى لكنك تسمعنى ، ولسوف تذوق طرف سيفى » .

كان المـوت واضحًا فى وجهه وأدركت أنه من المـستحيل أن أتفـادى سيفه . هذه المرة سيموت أحدنا .. ويمكن أن أعطيك اسم الجثة . هكـذا وقفنا نتبادل النظرات وكل منا ساكن كالتمثال ..

ثم اندفع ساجامور نحوى ..

صاح الناس :

ــ « اهرب .. أنقذ نفسك ! »

لم أتحرك ولو بوصة حتى صار هذا الرعد على بعـد خطـوات منـى ، فأدركت أن الوقت قد حان . أخرجت مسدسًا حربيًّا من قرابى ، وتبدى برق ودوى صوت انفجار .. وقبل أن يفهم أحد ما حدث كان المسدس قد عـاد لقرابه .

حصان بلا فارس والسير ساجامور على الأرض ميت .

اندهش الناس لأن الرجل ميت بلا تفسير .. ثمة ثقب فى الدروع علـى صدره لكنه صغير جدًّا ، لا يبدو ذا أهمية . طلب منى الملك أن أشرح سر هذه المعجزة ، لكنى ظللت واقفًا كالتمثال حيث أنا .

قلت :

ــ « لو كان هذا أمرًا فلسوف آتى .. لكن الملك يعرف القوانين .. على أن أنتظر حتى يطلب أحدهم مواجهتى » .

ساد الصمت .. فقلت :

ــ « حسن .. أنا أتحدى الجميع .. كل فرسان إنجلترا أن يواجهونى .. ليس كواحد بل مرة واحدة » .

كنت أخدعهم فعلاً .. فى مواقف كهذه كن جريئاً والعب بورقك كله مرة واحدة . هجم بعض الفرسان فصوبت بمسدسى على أحـــدهم .. بـــانج .. سرج خال .. بانج سرج آخر خال .. كنت أعرف أن عنـــدى اثنتى عشرة طلقة فى الغدارتين ، لكن لو لم تنجح عشر طلقات فى إقنـــاعهم فلـــسوف يقتلنى الفارس الحادى عشر ..

استنفدت تسع طلقات .. وبدأت أقنط .. لكن الفرسان توقفوا عنـــد هـــذا الحد وتراجعوا .. أنا قد فزت ..

أين مرلين ؟ لقد اختفى . كلما هزم سحر النصابين أمام ســـحر العلـــم ، بادر سحر النصابين بالفرار .

* * *



الفصل الحادى والعشرون

بعد ثلاثة أعوام

الآن لم يعد على أن أخفى أسرارى واختراعات القرن 19 العظيمة التى لدى . لقد جعلت القرن التاسع عشر ملكًا للقرن السادس .

ثلاثة أعوام مرت ، وهى ذى إنجلترا بلد مستقر جميل .. المدارس فى كل مكان ، وهناك صحف ممتازة .. هناك كتب عديدة صدرت ، منها كتاب عن النكات .. كان يحوى بعض النكات السخيفة التى نسمعها منذ 13 قرنًا ، وهذه المرة لم أتمالك إلا أن أشنق المؤلف .

لقد ولى الرق ، وصار كل الناس يدفعون نفس الضرائب . أدخلت الجراموفون والهاتف والقطار البخارى والسفينة البخارية .. وبدأت أستعد لإرسال بعثة لتستكشف أمريكا .

بدأت كذلك إنشاء خط السكك الحديدية بين لندن وكاميلوت . واستعنت بالفرسان لينقلوا الاختراعات الجديدة للناس .

كنت أفكر فى شيئين طموحين .. أولاً أردت أن أقضى على سلطة الكنيسة الكاثوليكية لتصير العقيدة البروتستانتية هى الأساس . ثم أردت أن تكون هناك استفتاءات بعد وفاة الملك آرثر .. استفتاءات يشارك فيها رجال ونساء .. لقد حكم آرثر البلاد نحو ثلاثين عامًا ، وحان الوقت كى أقدم للعالم شيئًا غير مسبوق : تغيير حكومى لا تراق فيه دماء .

كان تابعى كلارنس يشجع النظام الملكى ، لأنه يؤمن أن أى أمة اعتادت النظام الملكى ، سرعان ما تفنى وتضمحل لو فقدت الملكية . قلت لـــه إن الملوك خطر .. لماذا لا يتم تنصيب أسرة من القطط لتكون مالكة ؟ .. لهـــا نفس مزايا الملوك ولا خطر منها ولا تكلف شيئًا . هذه القطـــط لا تـــشنق أحدًا ولا تقطع رأس أحد .. ولا تسجن ولا تظهر قسوة .

جاءت ساندى التى صارت زوجتى ... جاءت مندفعة .

كانت تبكى وصوتها لا يخرج من شفتيها . احتـــضنتها وملـــست علـــى شعرها محاولاً فهم ما يدور :

ــ « ماذا حدث يا عزيزتى ؟ تكلمى ؟ »

سقط رأسها على صدرها عجزًا .. وشهقت قائلة :

ــ « هللو ــ سنترال ! »

صرخت فى كلارينس :

ــ « هلم .. اطلب معالج الملك حالاً » .

خلال دقيقتين كنت أركع جوار فراش الطفلة .. عرفت التشخيص فـــورًا .. دفتيريا ..

قلت للطفلة :

ــ « استيقظى يا عزيزتى هللو ــ سنترال » .



بصعوبة قالت :

ـ « بابا .. »

طلبت الكبريت وجلست جوارها أنتظر الأطباء . وجلبت دورق تنفس الدفتريا .

دخل سير لانلسوت فى دروعه النفيسة ، وكان متجهًا لقاعة المائدة المستديرة التى صارت مركزًا لتجارة الأسهم . نزع خوذته ووقف جوار الفراش ...

وضع فتيلاً لمصباح الكحول ثم بدأ يشعل دورق تنفس الدفتريا . صنعت لنا ساندى ما يشبه الخيمة ثم بدأنا تسخين الدورق مع بعض الكبريت والجير ليتصاعد البخار .

كان لانسلوت رجلاً وسيمًا طيبًا .. كان سيسعد زوجته لو تزوج ، لكن للأسف .. موضوع الملكة جنيفر .. ليس من الحكمة أن نتكلم عن هذه الأمور الآن ..

ظل ساهرًا معى جوار الطفلة ثلاثة أيام ، حتى زال الخطر .. ثم حملها بين ذراعيه وقبلها . بعدها ابتعد فى الردهة وسط عيون الفرسان المعجبين به . لسبب ما شعرت أننى لن أراه ثانية وقد آذى هذا قلبى .

قال لى الأطباء إن علينا إبعاد الطفلة لتستعيد قواها . يجب أن نظفر بهواء البحر ..

هكذا أقلعنا بسفينة وبعد أسبوعين وصلنا للساحل الفرنسى .

قدم لنا الملك الشاب فى المنطقة خدماته . وكانت قلعته الصغيرة مريحة .

لما نفد ما معنا من مؤن ، أرسلت السفينة لإنجلترا من جديد ..

فى الوقت نفسه كنت أريد أن أعرف نتائج تجربة قمت بها لجعل الفرسان ينهمكون فى رياضة تستهلك طاقاتهم .. بدأت أعلمهم لعبة البيزبول .





الفصل الثانى والعشرون

التحريم

لكن طفلتى بدأت تتدهور من جديد وصارت حالتها خطرة . ظللنا نعنى بها طيلة اليوم ..

كانت ساندى رقيقة بسيطة طيبة القلب . كانت زوجة وأمًّا بلا أخطاء .. برغم هذا لم أتزوجها لأى سبب سوى أنه طبقًا لقواعد الفروسية هى ملكى حتى يظفر بها آخر .

مع الوقت ومع مرور الأحداث همت بها حبًّا .. كنت غارقًا فى فجوة 13 قرنًا بين العالمين ، وقد سمعتنى بعد الزواج أصرخ وأئن أثناء النوم .. عندما صحوت من النوم قالت لى إننى كنت أهمس باسم أحد أحبائى الذين أفتقدهم . قالت لى إنها ستطلق نفس الاسم على الطفلة .. سألتها عن الاسم فقالت فى مرح :

ــ « هللو .. سنترال !! »

احتكت عظامى ببعضها من فرط الضحك ، لكنى لم أظهر ضحكاتى . كنت استعمل العبارة التى يستخدمونها فى الهاتف فى زمنى .. آلو سنترال !. حسبنها هى اسمًا وأصرت على تسمية ابنتها به .

لمدة أسبوعين عشنا بعيدين عن العالم . هذا شــعور لا يمكــن وصــفه عندما ترى ابنك فى عالم الظلال ، ثم تجده يستعيد قواه .. ثم ينير العــالم بضحكته ..

لكن السفينة لم تعد قط بعد رحلتها إلى كاميلوت . صعدت إلــى هــضبة عالية تراقب البحر . لا أرى شراعًا واحدًا .. البحر خال تمامًا .

عدت وأخبرت ساندى بهذه الأخبار . ماذا حدث ؟ هل تم غزو كاميلوت ؟.. زلزال ؟.. وباء ؟ ..

لا جدوى من التخمين لذا اقترضت من الملك سلاح بحريتــه .. ســفينة صغيرة جدًا لكنها تصلح .

ودعت ساندى وطفلى وعدت وحدى إلى إنجلترا . لم يكن الوداع سهلاً ، فقد شعرت انها المرة الأخيرة ..

صباح اليوم التالى بلغت إنجلترا .. كانت هناك سفن فى المرفأ فى دوفر . لكنها كانت خالية بلا علامات حياة ..

فى كانتربرى كانت الشوارع خالية تمامًا ..

رأيت جنــازة صغيرة هى أســرة تمشى وراء تابوت .. لكن لا صلوات ولا شموع ولا أجراس .. بكاء فقط . مروا بالكنيسة ولم يدخلوها . ورأيت أن جرس الكنيسة مربوط بحيث لا يدق ..

هنا فهمت المصيبة .. هذا ليس غزوًا بل هو حرمان كنسى ..

لقد عاقبتنى الكنيسة بالحرمان وفر الكل منى . لم يعد أمامى سوى التخفى والتحرك وحدى .

رحلة تعسة .. صمت فى كل مكان .. الناس لا يتكلمون ولا يمشون معًا .. كل رجل وحده مطرقًا برأسه .

أردت ركوب القطار لكاميلوت لكن المحطة كانت خاوية .

وصلت هناك فى ساعة متأخرة . ورأيت الظلام والصمت فى كل مكان . يبدو أن الكنيسة قد تولت كل شىء وقضت على الحضارة التى صنعتها . بدت لى القلعة مظلمة فوق قمة الجبل .. ولا يوجد فيها ضوء ..

كانت البوابة مفتوحة والجسر منصوبًا .. فدخلت .. لا صوت سوى صوت كعبى ..

* * *

كان كلارينس هناك وحده ..

كان غارقًا فى التعاسة والشجن .. فلما رآنى وثب وصاح :

ـ « ما أروع أن يقابل المرء شخصًا حيًا من جديد ! »

عرفنى كأننى غير متنكر وهذا أثار رعبى .. سألته :

ـ « هلم .. قل لى سر هذه الكارثة .. ماذا حدث .. »

ـ « لو لم تكن هناك ملكة جنيفر لما حدث هذا بسرعة .. إنها الملكة .. »

ــ « وسير لانسلوت ؟ »

ــ « نعم » .

ــ « احك التفاصيل » .

ــ « كان كل فرد فى المملكة يعرف قصة الملكة ولانسلوت .. فيما عدا الملك آرثر .. وفى ذات يوم اجتمع كل أبناء أخ الملك ومودريد وإجرافين .. وقرروا أن يلفتوا نظر الملك آرثر الساذج إلى علاقة زوجته جنيفر بالسير لانسلوت . دار جدل تخلله صياح ، ثم دخل الملك فسمع ما يقال . تم عمل كمينًا للسير لانسلوت دبره الملك ومودريد ... وقد مشى لانسلوت فيــه . لكن الفارس العظيم استطاع أن يجندلهم جميعًا ما عدا موردريد ..

« انقسم فرسان المملكة بين مؤيدى الملك ومؤيدى لانــسلوت .. إنهــا الحرب !.. أرسل الملك الملكة للحرق كى تطهرها النــار ، لكــن أنقــذها لانسلوت وزمرته ومات فرسان كثيرون » .

ــ « أه .. أنت تمزق نياط قلبى » .

ــ « باقى القصة هو الحرب .. حرب بسيطة .. عاد لانــسلوت لقلعتــه وجمع مجموعة من الفرسان وبدأ القتال ، حتى أعلنت الكنيسة السلام بين المتحاربين لكن سير جواين لم يرق له السلام .. كان متضايقًا نوعًا بسبب ذبح أخويه .. وقد أقنع الملك آرثر بأن يصحبه للحرب ضد لانسلوت . وقد ذهب آرثر معه وترك موردريد يدير شئون المملكة أثناء غيابه » .

ــ « حكمة الملوك المعتادة ! »



— « بالفعل .. راح موردريد يرتب كل شيء ليبقى ملكًا للأبد .. رتب أن يتزوج الملكة جنيفر لكنها هربت منه لبرج لندن . أراد أن يلحق بها لكن أسقف كانتربرى حكم عليه بالحرمان . عاد الملك فحاربه موردريد فى دوفر وفى كانتربيرى . وفى النهاية تم الاتفاق على أن يحكم موردريد كنت طيلة حياة آرثر ثم إنجلترا كلها بعد وفاة الأخير . على أننا حققنا شيئًا مهمًا بعد رحيلك : المراسل الحربى !.. »

— « وأين الملك الآن ؟ »

— « للأسف .. لقد مات من آثار جراحه بمجرد عمل اتفاق السلام » .

دهشت لهذا الخبر ، فلم أتوقع أن شيئًا يمكن أن يمس الملك ..

— « والملكة يا كلارينس ؟ »

— « صارت راهبة فى ألمزبيرى » .

— « ما أكبر هذه التغيرات فى وقت قصير .. !.. وماذا أفعل أنا ؟ »

— « سأخبرك .. الكنيسة هى السيدة اليوم .. الحرمان يشملك ويشمل موردريد ولن يرفع عنك فى حياتك » .

— « سوف أحاربهم بأتباعى وقدراتى العسكرية .. »

— « لا ترهق نفسك .. لم يعد لديك أكثر من ستين تابعًا .. »

— « وماذا عن مدارسنا وكلياتنا و ... » .

ـ « أنت لم تطرد التطير والايمان بالخرافات من الناس .. ولن يجرؤ أحد على مخالفة أمر الحرمان .. لن يقف معك أحد .. أنت ذكى لكن الكنيسة أذكى .. ألا تفهم أن الكنيسة هى التى دبرت إبعادك عن طريق نصيحة الأطباء ؟ »

ـ « هل تمزح ؟ »

ـ « كل بحار وكل ضابط على سفينتك كان تابعًا للكنيسة .. لقد كانت أنباء تصلنا أنك استقررت فى كاديز ثم من هناك سوف تنطلق فى رحلة حول العالم لصحة ابنتك » .

ـ « أنا لم أذهب لكاديز قط !!... على الأقل كنت سأكتب هذا » .

ـ « هذا ما خمنته .. على كل حال قمت بجمع جيش صغير من 52 شابًا أكبر من الرابعة عشرة وأقل من السابعة عشرة .. اخترت الصبية لأن الكبار قد تشربوا التطير والخرافة حتى العظام . أمر الحرمان قد كشفهم أمام نفسهم وكشفهم أمامنا .. لكن هؤلاء الصبية أرض بكر لأفكارنا ، وقد زرت كهف مرلين .. ليس القديم بل الجديد .. لقد جعلته صالحًا لتحمل الحصار .. »

ـ « فكرة ممتازة » .

ـ « هناك من يحرسون المكان .. كما أننى لغمت المكان بالديناميت لو أردنا تدمير آثار الحضارة هذه » .

ـ « جميل .. هـذه ضرورة عسكرية .. أشياء كثيرة تغيرت على كل حال » .

ــ « بعد هذا بنينا سلكًا شائكًا .. أنت علمتنا الطريقة منذ عامين . »

ــ « تذكرت » .

ــ « هناك 12 دائرة متداخلة مركزها الكهف نفسه » .

اقترحت عليه توصيل هذا السلك الشائك بدائرة كهربية بحيث تركض الخيول فتصطدم به وتسقط ميتة . كما أننا قمنا بزرع ألغام تحيط بالمكان .. سيكون منظرًا رائع الجمال .

ــ « كلارينس .. أنت قمت بعمل ممتاز فعلاً » .

ــ « كان لدينا وقت كاف ..

ــ « الآن ونحن مستعدون لن نقبع فى مكاننا .. سوف نبدأ نحن بالهجوم ! »

ــ « هل تعنى هذا ؟ »

ــ « طبعًا .. الدفاع ليس سياستى . سوف نبدأ الآن ونعلن إنجلترا جمهورية ! والآن عليك أن تكتب هذا الإعلان :

بما أن الملك قد مات بلا ورثة ، فقد صار من واجبى أن أستعمل سلطتى التشريعية حتى نخلق حكومة .. انتهت الملكية فلا وجود لها .. ستعود القوى السياسية لأصلها بين صفوف الشعب . لن تعود هناك طبقة نبلاء تملك حقوقًا بالمولد . الدين حر والكل سواسية .

إننى أعلن الجمهورية .. وعلى المواطنين البريطانيين أن ينتخبوا رئيسًا وممثلين لهم .

الرئيس ـ من كهف مرلين » .

قال كلارينس :

ــ « لكن هذا يخبرهم بمكاننا .. هذه دعوة لهم للهجوم . »

ــ « هذه فكرتى .. الاستفزاز والبدء .. والآن يجب أن نــسرع لكهــف مرلين » .

ــ « لدى دراجتان خلال عشر دقائق .. سوف تحل اللعنة غــدًا عنــدما يقرأ الناس هذه الورقة .. »

* * *



الفصل الثالث والعشرون

معركة حزام الرمل

فى كهف مرلين مع كلاريس و52 شابًا بريطانيًا نظيف العقل . كنا نعد كل شىء وكان هؤلاء القوم يصدقوننى ويعرفون أننى أعنى ما أقول .

مضى أسبوع من الانتظار ، لكنى لم أشعر بالملل لأنى كنت منهمكًا فى الكتابة . كنت أكتب مذكرات هذه المغامرة ، كما كتبت خطابات لساندى زوجتى . كنت أتخيل (هللو سنترال) فى الفراش تغنى وتضع قبضتها فى فمها وتمد قدميها متثائبة .

كان جواسيسى فى الخارج يرسلون لى الأخبار .. هناك شحن دينى مستمر باعتبار هذه حرب الكنيسة . كل النبلاء قادمون للحرب .. ..

أنا أحمق !... افترضت أن الناس ستتحمس لى ، لكن تقطيبة الإقطاعيين والنبلاء فى وجوه الناس كافية لتجعلهم كالخراف . فى نهاية الأسبوع صار شعار إنجلترا كلها هو (الموت للجمهوية) وصارت إنجلترا كلها ضدى .

كان الصبية الذين معى متوترين .. تؤرقهم فكرة أن إنجلترا كلها ضدهم . هناك ثلاثون ألف فارس ظلوا أحياء بعد الحرب الأخيرة وكلهم يزحفون نحونا الآن !.. كل إنجلترا ضدنا !..

قلت للصبية :

ــ : يا شباب .. إن قلوبكم فى المكان الصحيح . أنتم فكرتم فى الصواب . أنتم قلب إنجلترا .. هم ثلاثون ألفًا .. هناك قوم من العامــة سيمــشون خلف الرب ثم يتقاعسون .. بينما يبقى الفرسان فقط . هل تخشونهم ؟ »

دعوا المهاجمين يأتوا .. سيكون يومًا صاخبًا ..

عند الفجر جاء المراقب ليخبرنى عن كتلة سوداء فى الأفق تتحرك ..

تم إعداد الإفطار بسرعة فأكلنا ثم أصدرت تعليماتى للشباب ..

أشرقت الشمس فرأينا الحشد القادم يتحرك بسرع كموج البحر . منــات الرايات ثم ســقطت الشمس على الدروع فتوهجت .. كان مشهدًا جمــيلاً لا أنكر هذا ..

ودوى صوت النفير .. وتحرك الجمع نحو حزام الرمال المحيط بالكهف .. فتوقف تنفسى ..

الحشد يقترب . اقرب فأقرب ... حتى اختفى حزام الرمال ..

رباه .. سرعان ما دوى الانفجار كالرعد .. وتطايرت الأشــلاء بينمــا خيمت سحابة دخان ثقيلة على الأرض .. لقد انفجرت الألغام ..

ضغطت زرًا فانفجرت كل المصانع التى شيدتها . كان هذا ضروريًا حتى لا يستولى العــدو على سلاحنا ويحاربنا به . قضينا العشر ربع ساعة فى

حياتنا ونحن ننتظر أن ينقشع الدخان لنرى .. . فى النهاية انقشع بالفعل فرأينا أنه لا يوجد شخص حى !

لقد حفر الديناميت خندقًا اتساعه مئة قدم ..

لا يمكن عد الموتى لأن هذه لم تعد أجسادًا بل أشلاء مختلطة بالحديد .. لن تكون هناك إمدادات .. هذه آخر مواجهة لفرسان إنجلترا .. أول تجربة لهم مع حروب الإبادة المعاصرة ..

خطبت فى شبابى الـ 52 مهنئًا بالنصر ومشجعًا لهم على الاستمرار . دوى التصفيق فقلت :

ــ « الحرب مع بريطانيا قد انتهت .. لقد خرجت بريطانيا كدولة من الحرب .. لكن ما زال لنا صراع مع الفرسان .. فرسان بريطانيا قد يموتون لكنهم لا ينهزمون .. ما دام أحدهم ما زال حيًا فالحرب لم تنته » .

عدنا نرتب التحصينات ورتبنا طريقًا للفرار .. وقد وجد الشباب جدولاً قريبًا فقمنا بتحويل مجراه إلى معسكرنا بحيث يتدفق الماء فى الخندق حسب رغبتنا .

جاء الليل .. قال أحد المراقبين إنه يرى معسكرًا على مرمى النظر بالتلسكوب . أدركت أنهم هناك يراقبون ردود أفعالنا ... سوف يحاربون بشجاعة فى الليل .. لكنى خمنت ما ينوون عمله .. خمنته لأنه الشىء الذى كنت سأعمله لو كنت فى مكانهم وأتمتع بنفس الجهل ..

أخبرت كلارينس بتوقعى فوافق عليه . كنت أشعر بتأنيب ضمير ، لـذا كتبت للفرسان رسالة :

ـ « إلى قائد الفرسان الثائرين : كفاحكم بلا جـدوى . نعـرف مـدى قدراتكم وأنكم لا تستطيعون حشد أكثر من عشرين ألف فـارس ضـدنا .. لا فرصة لكم . نحن مسلحون وعددنا 52 . ليس 52 رجلاً بل 52 عقلاً .. نحن نمنحكم حياتكم مكرمة لعائلاتكم .. فانتهزوا الفرصة . سلموا أسلحتكم واستسلموا للجمهورية .

اقترحت على كلارينس أن أرسل لهم الرسالة مع رسول ، فضحك كثيرًا وقال :

ـ « أنت لا تفهم النبـلاء .. هلم ناولنى هـذه الرسـالة كأننى جـيش العـدو » .

ناولته الرسالة وأنا أضحك فمزقها ، وقال كأنه أحد هؤلاء النبلاء :

ـ « مزقوا هذا الحيوان وأعيدوه فى سلة لسيده الوغد الذى أرسـله . لا توجد لدينا إجابة أخرى ! »

كان على حق .. كان أدرى بما سيحدث ، وقد أدركت سذاجة فكرتى .

عندما صار الظلام دامسًا غادرت الكهف وزحفت قرب خطوط المعسكر . سمعت حفيفًا وصوت معدن .. ثم رأيت مئات الرءوس الـصغيرة تتحـرك ببطء .. هل هم فعلاً ؟ من الممكن أن تخطئ عندما يكون خيالـك يقظًـا ،

لكنى أدركت أن ما أراه صحيح .. هؤلاء القوم أعدوا لنا حفل مفاجآت صغيرًا .. غالبًا عند الفجر .

عدت مسرعًا فقد رأيت ما يكفى ..

أوقظت كلارنس وقلت له : إن أعداءنا يهجمون هجمة رجل واحد .. هم يعبرون الخندق الآن ..

قال كلارنس :

ــ « سوف يرسلون رجلى كشافة للتأكد من أن الأمور مواتية .. أقترح أن تطفئ الأضواء على الأسوار » .

ــ « فعلت ذلك فعلاً .. أنت تعرف أننى أتمتع بكرم الضيافة » .

تحركنا قرب السور المكهرب فرأينا شبح رجل .. هذا فارس قد استند للسور فتفحم والدخان يتصاعد منه ..

ثم ظهر فارس متسلل آخر .. زحف نحو الرجل المتصلب ووقف جواره . لا بد أنه مندهش من وقفته الثابتة ، ثم وضع يده عليه قائلاً :

ــ « هل أنت بخير يا سير مى .. »

وفجأة تصلب وخمدت حركته . لقد قتله رجل ميت !.. هذا أقسى ما فى القصة ..

جاء باقى المتسللين فى الظلام وكل واحد يمد سيفه للأمام يتحسس به السلك الشائك .. من حين لآخر نرى شرارة زرقاء ونشم الشياط ..

مساكين !.. لقد كانت الكهرباء قوية لدرجة أنها تقتل قبل أن تصرخ الضحية .

ثم بدأ الهجوم الأعنف وتكوم جبل أسود ممن ضربتهم الكهرباء . حوصر معسكرنا بالجثث . وبرغم هذا واصلوا التقدم واجتازوا الدائرة الثانية ..

هنا ثلاث دوائر من أجساد ميتة ..

ضوضاء الموت تتعالى هذه المرة إذ يموت 11 ألف رجل . بينما يتقدم عشرة آلاف آخرون عبر الخندق .. هذا وقت إنهاء المأساة ...

أطلقت رصاصتين بما معناه :

ـ « افتحوا المياه ! »

فجأة دوى هدير وعلى الفور انفجر الماء عبر الخندق وولد نهر عمقه 25 قدمًا وعرضه مئة قدم . هكذا هلك ثلاثة أرباع الفرسان غرقًا بينما تكفل مسدسى بالباقين .

لكن الحظ خاننا .. خلال ساعة من هذا النصر وقع خطأ جسيم منى .. لكن لن أحكى لكم .. فلتنته المذكرات هنا ..

* * *



الفصل الرابع والعشرون

حاشية كتبها كلارينس

أنا كلارينس أكتب بدلاً منه . لقد قرر الرئيس أن يخرج ليتفقد الجرحى ، برغم أننى قلت له إن هذا غير آمن .

رأينا أول رجل يحتضر فانحنى الرئيس على ظهره وربت عليـــه . هنـــا استدار الرجل وعرف الرئيس فطعنه . كان هذا هو سير ميلياج راونـــس . وقد قتلناه وحملنا القائد للكهف وعنينا بجرحه الذى لم يكن خطيرًا . وسط هذه الظروف جاءت فلاحة طيبـــة بسيطة تساعدنا .. لم ندر أنها الـــساحر مرلين متنكرًا . عرضـــت أن تطهـــو طعامنا .. وقـــد رحبنا بـــذلك لأننـــا مشغولون .

كنا فى مصـــيدة .. لو لم نتحـــرك فلسوف نموت تحت حصار الجثث .. ولو تحركنا فلسوف نفقـــد حصانتنا .. الحـــق أن الأجســـاد الميتة نشرت المرض بيننا ..

صحوت من النوم لأجد النصاب يأتى بحركات حول رأس الرئيس . فقلت للمرأة :

ـــ « توقفى ! ماذ تعملين ؟ »

قالت بلهجة المنتصرين :

ـــ « لقد انتصرتم والآن هزمتم .. سوف ينام 13 قرنًا .. أنا مرلين ! »

ثم دوى الضــحك السخيف كأنه ثمــل . ومشى يترنح فاصطدم بــسلك مكهرب .. رحل عن عالمنا والضحكة على شفتيه يحملها معه للجحيم .

الرئيس لم يتحرك ولم يفق من نومه .. وهكذا قررنا أن ننقله إلى مكان فى الكهف لا يجده أحد . واتفقنا على أن يكتب أحدنا القصة كاملة ويتركها مع الرئيس الذى نحمل له كل ولاء .

* * *



نهـاية النص

جاء النهار فوضعت النص جانبًا . لقد توقف المطر وصار العالم رماديًا حزينًا .

ذهبت لغرفة الغريب ووقفت جوار الباب الموارب أصغى . قرعت البـاب فلم يرد أحد .. نظرت من الثقب فوجدته يغفو على ظهره ويتكلم ويـشوح كأنه مريض يهذى .

كان يقول :

ــ « ساندى .. لقد عدت .. لكم اشتقت لك . لا تفارقينى .. أنت باهتـة جدًا كأنك سحابة دخان لكنك هنا . أنا أراك . لقد تهـت للحظـة فحـسبتك رحلت ..

ساندى .. اعتن بى .. ظلى بقربى .. لا تجعلينى أجن ثانية .. »

وظل يهلوس ويقول كلامًا غير مترابط لفترة ..

ثم ساد الصمت . وبدا لى كأنه يغطس فى المـوت . وبـدأت حـشرجة الموت فى صوته وبدا كأنه ينصت .. ثم قال :

ــ « هذا هو الملك !... انزلوا الجسر المعلق !... استعدوا للقتال .. »

لكنه لم يستطع إكمال هذه اللحظة الدرامية الأخيرة .

مارك توين

1889

روايات عالمية للجيب

■ صدر من هذه السلسلة ■

81



أمريكى فى بلاط الملك

هذا رجل شمالى من ولاية كونيكتيكات الأمريكية ممن يسمونهم (يانكى) ، وجد نفسه ينتقل عبر الزمن والمسافات ليكتشف أنه فى عصر الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة والساحر مرلين ، ويكون عليه أن يبقى حيًّا ، وينقل جذوة الحضارة لهذا المجتمع المتخلف المكتفى بغبائه وقناعاته .

مارك توين بلسانه الساخر الحاد وخياله الخصب يحكى لنا هذه المغامرة الممتعة ، والتى قلدتها عشرات القصص والأفلام بعد ذلك .

العدد القادم

غبار النجوم